

الشِّعر والشُّعراء

ابن قتيبة



عيون الشعر العربي القديم
الشعر والشعراء
ابن قتيبة


عيون الشعر العربي القديم
الشعر والشعراء
ابن قتيبة

PJ7541 .I26 2014
ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، 889-828م
الشعر والشعراء/ ابن قتيبة؛ إعداد: خليل الشيخ.- ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2014.
ص. ؛ سم.-(سلسلة عيون النثر العربي القديم)
تدمك: 978 – 9948 – 17 – 350 – 2
1. الشعر العربي -- تاريخ ونقد. 2. الشعر العربي -- مختارات. 3. الشعراء العرب -- تراجم.
أ. الشيخ، خليل. ب. العنوان. ج. السلسلة.

إعداد:
د. خليل الشيخ

خطوط:
الفنان التشكيلي الخطاط
محمد مندي





الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@adach.ae
www.adach.ae

المقدمة

الشعر والشّعراء لأبي محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مُسْلم بن قتيبة الدينوري (276هـ): يكشف عنوان هذا الكتاب عن مضمونه؛ فهو يتوقف عند الشعر- مثلما يتوقف عند أصحاب هذا الشعر- وقفةً نقديَّة تكشف منهج صاحبه النقدي؛ حيث يقول: «هذا كتاب ألّفته في الشعر، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم، وأقدارهم وأحوالهم». فالكتاب يجمع بين النقد وتاريخ الأدب، وإن غلب الحديث في تاريخ الشعراء على الحديث في طبيعة الشعر.

لم يأخذ ابن قتيبة بمنهج الطبقات في استعراضه لهؤلاء الشعراء، كما أنه لم يَقُم بترتيبهم ترتيباً زمنياً؛ مما يبيِّن عدم اهتمامه بالبعد التاريخي في دراسته للشعر. وقد اعتمد في أحكامه النقدية على ذائقته، وحرص على أن يكون مستقلًّا برأيه، وبما يختاره من أشعار وأخبار، وهو يتحدث عن قرابة مئتين من الشعراء في الجاهلية والإسلام، وكانت وقفاته تقصر أو تطول بحسب أهمية الشاعر، وطبيعة المسألة التي يتعرض لها.

لصاحب (الشعر والشعراء) مصنفات كثيرة بلغت- بحسب أبي العلاء المعري- خمسة وستين مصنَّفًا، وهو ما يكشف عن ثقافة واسعة ومواقف فكرية؛ لعل من أبرزها عداءَهُ للمعتزلة، ودفاعَه عن العرب في وجه الشعوبية.

يوضّح ابن قتيبة- وهو يبيِّن بعض ملامح منهجه في الكتاب- أنّ الجودة هي مقياس الشعريّة، وهي قيمةٌ مستقلةٌ غير مرتبطة بالزمن؛ فيقول: «ولا نظرت إلى المتقدِّم منهم بعين الجلالة لتقدّمه، وإلى المتأخّر منهم بعين الاحتقار لتأخّره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلًّا حظه، ووفرت عليه حقَّه؛ فإني رأيت في علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدّم قائله، ويضعه في متخيّره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلّا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله». ثم يضيف :«لم يقصُرِ الله العلم والشعر والبلاغةِ على زمنٍ دونٍ زمن، ولا خَصَّ به قومًا دونٍ قوم، بل

جعل ذلك مشتَرَكًا مقسومًا بين عباده في كلِ دهر، وجعل كل قديمٍ حديثًا في عصره، وكل شرفٍ خارجيَّة في أوَّله».

وهذه النظرة الموضوعية للإبداع تتعامل مع النصوص الشعرية بذاتها، ولا تنظر إليها من منظور القِدَم والحداثة؛ فالنص الشعري في تصوّر ابن قتيبة قيمة لا تبهت على مر الزمان. ويبدو أن التحوّلات الشعرية في عصره جعلت راويةً مهمًّا من أمثال أبي عمرو بن العلاء يقول: «لقد كثر هذا المحدَث وحَسُن؛ حتى لقد هممت بروايته».

يتوقف ابن قتيبة عند اللفظ والمعنى؛ وهي مسألة شغلت النقد العربي القديم، وإذا كان الجاحظ من أنصار اللفظ؛ حيث كان يرى أن المعاني مطروحة في الطريق، فإن ابن قتيبة كان يجمع بينهما؛ فقد قسّم الشعر إلى أربعة أضرب:

1- ضرب حسن لفظه وجاد معناه.

2- ضرب حسن لفظه وحلا، فإذا فتّشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.

3- ضرب منه جاد معناه، وقصرت ألفاظه.

4- ضرب منه تأخر معناه، وتأخر لفظه.

فمعنى ذلك أنّ اللفظ والمعنى عند ابن قتيبة يتعرضان معاً للجودة والقبح، ولا مزية لأحدهما على الآخر، ولا استئثار بالأولوية لأحدهما؛ فقد يكون اللفظ حسناً وكذلك المعنى، وقد يتساويان في القبح وقد يختلفان.

وثمة ثنائية أخرى يتوقف ابن قتيبة في كتابه عندها؛ وهي ثنائية الطبع والتكلف. أما الشاعر المتكلّف في نظره فهو كل من قام بتنقيح شعره وتجويده، وقد رأى إحسانٍ عباس أنّ فقر المصطلح النقدي عند ابن قتيبة، هو الذي قاده إلى استخدام مصطلحي الطبع والتكلّف بمعان مختلفة؛ فالتكلف حين يكون وصفاً للشاعر له معنى، ويختلف معناه حين يكون وصفاً للشعر؛ فحين نقول: شاعر متكلِّف- بكسر اللّام- نعني الشاعر الذي «قوَّمَ شعره بالثِّقاف، ونقَّحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر؛ كزهير والحطيئة». أما الشاعر المطبوع فهو صاحب الموهبة الشعرية المتدفقة، أو هو «من سمح بالشعر، واقتدر على القوافي، وأراك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته قافيته، وتبيَّنت في شعره رونق الطبع، ووشي الغريزة، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يَتَزَحَّرْ».

لهذا كان من الطبيعي أن يتوقف ابن قتيبة عند أوقات الشاعر التي تشجع على قول الشعر، وأن يتوقف عند بواعث الشعر الداخلية منها والخارجية، إلى الحد الذي جعله يرى أن الدوافع الدنيوية تفوق الأخروية؛ فقد كان شعر الكميت في بني أمية أفضلَ منه في الطالبيين.

لهذا كان من الطبيعي أن يتوقف ابن قتيبة عند دور المتلقي في بناء القصيدة، وهو توقف شغل النقاد المحدثين الذين قدموا تفسيراتٍ متعددةً للّحظة الطّلليّة، وإذا كانت تفسيرات النقاد المحدثين لهذه اللحظة تجمع بين الوجودي والاجتماعي والحضاري، وتكشف عن ثراء تلك اللحظة وكثافتها الجمالية، فإن موقف ابن قتيبة قاد كذلك إلى التوقف عند بنية النص الشعري الجاهلي، والوحدة الموضوعية للقصيدة الجاهلية والعربية عموماً. وليس يفهم من كلام ابن قتيبة أنه يوجب على الشعراء البقاء في ظلال هذه التقاليد وعدم الخروج عليها، بمقدار ما يشير كلامه إلى الابتعاد عن التقليد الذي يردد ما قيل سابقاً بمسمِّيات جديدةٍ.

لكن الكِتَاب يبيّن في المحصلة الختامية أنّ ابن قتيبة يهتم بالشعراء اهتماماً يفوق اهتمامه بالشعر، وقد كان حريصاً على أن يربط من يترجم لهم بطابعٍ معيِّن أو بحكايةٍ معينةٍ، وهو في هذا يظلّ يتوجه صوب القارئ؛ لهذا ظل يهتم بجودة الشعر، وخلوه من العيوب والهنات الشكلية والمضمونية.

منهج ابن قتيبة في دراسة الشعر:

قال أبو محمَّد عبد الله بن مسلم بن قُتيبة:

هذا كتاب أَلَّفْتُه في الشعراء، أَخبرت فيه عن الشعراء وأَزمانهم، وأَقدارهم، وأحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم، وأسماء آبائِهم، ومَن كان يُعْرف باللقب أو بالكنية منهم، وعمَّا يُستحسن من أخبار الرجل ويُستجاد من شعره، وما أَخذَتْهُ العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وما سَبَقَ إليه المتقدّمون فأخذه عنهم المتأخِّرون. وأَخبرتُ فيه عن أقسام الشعر وطبقاته، وعن الوجوه التي يُختار الشعر عليها ويستحسن لها، إلى غير ذلك ممَّا قدَّمتُه في هذا الجزء الأوّل.

وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء، الذين يعرفهم جُل أهل الأدب، والذين يَقَع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب، وفي النحو، وفي كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمَّا مَن خَفِي اسمُه، وقلَّ ذكرُه، وكَسَدَ شعرُه، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواصِّ، فما أقلَّ من ذكرتُ من هذه الطبقة! إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل، ولا أعرف لذلك القليل أيضاً أخباراً، وإذْ كنت أعلم أنَّه لا حاجة بك إلى أن أُسَمِّيَ لك أسماءً لا أدُلُّ عليها بخبرٍ أو زمانٍ، أو نسبٍ أو نادرةٍ، أو بيتٍ يُستجاد أو يُستغرب.

ولعلَّك تظنُّ- رحمك الله- أنَّه يجبُ على من أَلَّفَ مثلَ كتابنا هذا أَلَّا يدَعَ شاعراً قديماً ولا حديثاً إلّا ذكره ودَلَّك عليه، وتُقَدِّرُ أن يكون الشعراءُ بمنزلة رُواة الحديث والأخبار، والملوك والأشراف، الذين يَبْلُغهم الإِحصاءُ، ويجمعهم العددُ.

والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهليَّة والإسلام أكثرُ من أنْ يُحِيطَ بهم مُحيطٌ، أو يقف من وراءِ عددهم واقِفٌ، ولو أنفدَ عُمْرَه في التنقير عنهم، واستفرغ مجهودَه في البحث والسؤالِ. ولا أَحْسِبُ أحداً من علمائنا استغرق شعرَ قبيلة؛ حتَّى لم يَفُتْه من تلك القبيلة شاعرٌ إلّا عَرَفَه، ولا قصيدةٌ إلّا رَوَاها.

قال الأَصْمَعي: جاء فِتْيَانٌ إلى أَبي ضَمْضَم بعد العِشاء، فقال لهم: ما جاء بكم يا خِبثاء؟ قالوا: جئناك نَتَحَدَّثُ. قال: كذبتم، ولكنْ قلتُم: كَبِرَ الشيخُ فنَتَلَعَّبُه؛ عسى أنْ نأخذ عليه سقطةً! فأنشدهم لمئةِ شاعرٍ، وقال مرة أخرى: لثمانين شاعراً، كلُّهم اسمه عَمْرٌو. قال الأَصْمَعِيّ: فعددتُ أنا وخَلَفٌ الأحمر فلم نقدِرْ على ثلاثين!

ولم أَعْرِضْ في كتابي هذا لمن كان غَلَب عليه غيرُ الشعر؛ فقد رأينا بعض مَن أَلَّفَ في هذا الفنِّ كتاباً يذكَر في الشعراء مَن لا يُعْرَفُ بالشعر، ولم يَقُلْ منه إلَّا الشَّذَّ اليسيرَ. ولو قَصَدنا لِذكر مثل هؤلاء في الشعر لذكرنا أكثر الناس؛ لأنَّه قلَّ أحدٌ له أدنَى مُسْكة من أدبٍ، وله أدنى حظٍّ من طَبْعٍ، إلَّا وقد قال من الشعر شيئاً، ولاحتجنا أن نذكُرَ صحابةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجِلَّةَ التابعين، وقوماً كثيراً من حَمَلَةِ العلم، ومن الخلفاءِ والأشرافِ، ونَجعلَهم في طبقات الشعراء.

ولم أَسْلُك فيما ذكرتُه من شعر كلّ شاعر مختاراً له، سبيلَ مَن قَلَّد، أو استَحْسنَ باستحسانِ غيره، ولا نظرتُ إلى المتقدِّم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخِّر منهم بعين الاحتقار لتأَخُّره، بل نظرتُ بعين العدلِ على الفريقين، وأعطيتُ كلَّا حظَّه، ووفَّرْتُ عليه حقَّه.

فإني رأَيتُ مِن علمائنا مَن يستجيدُ الشعرَ السخيف لتقدُّم قائله، ويَضعُهُ في مُتَخَيَّره، ويُرْذِلُ الشعر الرصينَ، ولا عيب له عنده إلَّا أنَّه قيلَ في زمانه، أو أنَّه رأى قائلَه.

ولم يَقصُر اللهُ العلمَ والشعرَ والبلاغةَ على زمنٍ دون زمنٍ، ولا خَصَّ به قوماً دون قوم، بل جَعل ذلك مشترَكاً مقسوماً بين عبادِه في كلِّ دهر، وجَعل كلَّ قديم حديثاً في عصره، وكلَّ شَرَفٍ خارجيَّةً في أوَّله؛ فقد كان جَريرٌ والفَرَزْدَقُ والأخْطَلُ وأمثالُهم يُعَدُّون مُحْدَثِين. وكان أبو عَمرو بن العَلاء يقول: لقد كَثُر هذا المحدَثُ وحَسُنَ؛ حتَّى لقد هممتُ بروايته.

ثمَّ صَار هؤلاءِ قَدَماءِ عندنا ببُعْدِ العهدِ منهم، وكذلك يكونُ من بعدهم لمن بعدَنا؛ كالخُرَيميّ والعَتّابيّ والحسن بن هانِئٍ وأشباهِهم. فكلُّ مَن أتى بِحسَنٍ من قولٍ أو فعلٍ ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يَضَعْهُ عندنا تأخُّر قائله أو فاعِله، ولا حداثَةُ سِنِّهِ، كما أَنَّ الرّديءِ إذا ورد علينا للمتقدِّم أو الشريف، لم يرفعه عندنا شرفُ صاحبه ولا تقدُّمُه.

وكان حقُّ هذا الكتاب أن أُودِعَه الأَخبارَ عن جلالةِ قدر الشعر وعظيم خطره، وعَمَّنْ رفعه الله بالمديح، وعَمَّنْ وَضَعَه بالهجاء، وعمَّا أودعَتْه العربُ من الأخبار النافعة، والأنساب الصحاح، والحِكَم المضَارِعَة لحِكَمِ الفلاسفة، والعلوم في الخيلِ، والنجوم وأنوائها والاهتداءِ بها، والرياح وما كان منها مبشِّراً أو جائلاً، والبروقِ وما كان منها خُلَّباً أو صادقاً، والسحابِ وما كان منها جهَاماً أو ماطراً، وعمّا يبعث منه البخيلَ على السماح، والجبان على اللقاء، والدَّنيَّ على السُّمُوِّ.

أقسام الشعر:

تدبَّرْتُ الشعر فوجدته أربعة أَضْرُبٍ:

ضربٌ منه حَسُنَ لفظه وجاد معناه، كقول القائل في بعض بني أميَّة:

في كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبقٌ

مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ في عرْنِينِهِ شممُ

يغضِي حَيَاءً ويُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ

فَما يُكلَّمُ إلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

لم يُقل في الهيبة شيءٌ أحسنُ منه.

وكقولِ أَوْسِ بن حَجَر:

أيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعَا

إنَّ الَّذِي تَحْذرِينَ قَدْ وَقَعَا

لم يبتدئ أحدٌ مرثيةً بأحسن من هذا.

وكقول أبي ذُؤَيْبٍ:

والنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إذَا رَغَّبْتَهَا

وإذَا تُرَدُّ إلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

قال الأصمعي: هذا أَبدعُ بيت قاله العربُ.

وكقول حُمَيْد بن ثَوْرٍ:

أَرَى بَصَرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ صِحَّةٍ

وحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَصِحَّ وتَسْلَمَا

ولم يقل في الكِبَرِ شيءٌ أحسنُ منه.

وكقول النَّابِغَة:

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ

ولَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِب

لم يبتدئ أحدٌ من المتقدمين بأحسن منه ولا أغرب. ومثل هذا في الشعر كثيرٌ، ليس للإطالة به في هذا الموضع وجهٌ.

وضربٌ منه حَسُنَ لفظه وحَلا، فإذا أنت فتّشْتَه لم تَجِدْ هناك فائدة في المعنى، كقول القائل:

وشُدَّتْ على حُدْبِ المَهَارِي رحَالُنَا

ولا يَنْظُرُ الغَادِي الذي هُوَ رَائحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا

وسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ

هذه الألفاظ- كما تَرَى- أحسنُ شيءٍ مَخارجَ ومَطَالِعَ ومَقَاطِعَ، وإنْ نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام مِنى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبِلَنا الأَنْضَاء[1]، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطيّ في الأبطح. وهذا الصنف في الشعر كثيرٌ.

وضربٌ منه جاد معناه وقصُرَت أَلفاظُه عنه، كقول لَبِيدِ بن ربيعة:

ما عَاتَبَ المَرْءَ الْكَرِيمَ كَنَفْسِهِ

والمَرْءُ يُصْلِحُهُ الجَلِيسُ الصَّالِحُ

هذا وإن كان جيّد المعنى والسبكِ، فإِنَّهُ قليلُ الماءِ والرَّونق.

وكقول الفرزدق:

والشَّيْبُ يَنْهَضُ في الشَّبَاب كأَنَّه

لَيْلٌ يَصِيحُ بجَانِبَيْهِ نَهَارُ

وضربٌ منه تأخَّر معناه وتأخَّر لفظُه، كقول الأعشى في امرأةٍ:

وفُوها كَأَقَاحِيَّ

غَذَاهُ دَائمُ الهَطْلِ

كما شِيبَ برَاحٍ بَا

رِدٍ مِنْ عَسَل النّحْلِ

وكقول الخليل بن أحمد:

إنَّ الخَليطَ تَصَدَّعْ

فَطِرْ بِدَائِكَ أَوْ قَعْ

لَوْلَا جَوَارٍ حِسَانٌ

حُورُ الْمَدَامِعِ أَرْبَعْ

أُمُّ البَنِينَ وأَسْمَا

ءٌ والرَّبَابُ وبَوْزَعْ

لَقُلْتُ لِلرَّاحِلِ: ارْحَلْ

إِذَا بدا لَكَ أَوْ دَعْ

وهذا الشعر بَيِّنُ التكلُّف، رديء الصنعة، وكذلك أشعار العلماء، ليس فيها شيءٌ جاء عن إسماح وسهولة؛ كشعر الأَصْمَعِيّ، وشعر ابن المُقَفَّع، وشعر الخليل، خلا خَلَفٍ الأحمر، فإنَّه كانَ أَجودَهم طبعاً، وأكثرَهم شعراً. ولو لم يكن في هذا الشعر إلا (أُمُّ الْبَنِينَ) و (بَوْزَعْ) لَكَفَاهَ!

بدايات القصائد

وسمعتُ بعضَ أهل الأدب يذكرُ أنَّ مُقَصَّد القصيدِ إنَّما ابتدأ فيها بِذكر الديار والدِّمَنِ والآثار، فبكَى وشَكَا، وخاطبَ الرَّبْعَ، واستوقَفَ الرفيقَ؛ ليجعلَ ذلك سبباً لذكر أهلِهَا الظاعنينَ عنها؛ إذْ كان نازلةُ العَمَدِ[2] في الحلول والظَّعْن على خلاف ما عليه نازلةُ المَدَر؛ لانتقالِهم عن ماءٍ إلى ماءٍ، وانتجاعهم الكَلأ، وتَتَبُّعِهِمْ مساقطَ الغَيْث حيث كان. ثم وصل ذلك بالنسيب؛ فشكا شِدَّة الوَجْدِ وأَلَمَ الفِرَاقِ، وفَرْطَ الصبابة والشوق؛ لِيمِيلَ نحوَه القلوبَ، ويصرفَ إليه الوُجوه، ولِيَسْتَدْعِيَ به إصغاءَ الأسماعِ إليه؛ لأنَّ التشبيب قريبٌ من النفوس، لائِطٌ بالقلوب؛ لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبَّة الغَزَل، وإلْفِ النساء، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلِّقاً منه بسببٍ، وضارباً فيه بسهم؛ حلالٍ أو حرام. فإذا علم أنَّه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عَقَّب بإيجاب الحقوقَّ؛ فرَحَل في شعره، وشكا النَّصَبَ والسَّهَرَ، وسُرَى الليلِ وحرَّ الهجير، وإنضاءَ الراحلةِ والبعير. فإذا عَلِمَ أنَّه قد أوجب على صاحبه حقَّ الرجاء، وذِمَامة التأْميل، وقَرَّرَ عنده ما ناله من المَكارهِ في المسير، بَدَأَ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزَّه للسَّماح، وفضَّله على الأشباهِ، وصَغَّر في قَدْرِه الجزيلَ.

فالشاعر المُجيد مَن سَلَكَ هذه الأساليب، وعدَّل بين هذه الأقسام؛ فلم يجعل واحداً منها أَغْلَبَ على الشعر، ولم يُطِلْ فيُمِلَّ السامعين، ولم يقْطَعْ وبالنفوس ظَماءٌ إلى المزيد.

فقد كان بعضُ الرُّجَّازِ أَتَى نَصْرَ بن سَيَّار والِي خُرَاسَان لبني أُمَيَّة، فمدحه بقصيدةٍ تشبيبُها مئة بيتٍ، ومديحُها عشرة أبياتٍ، فقال نَصْرٌ: واللهِ ما بَقَّيْتَ كلمةً عَذْبَةً ولا معنى لطيفاً إلّا وقد شَغَلْتَه عن مديحي بتشبيبك، فإن أردت مديحي فاقتصد في التسيب. فأتاه فأنشده:

هَلْ تَعْرِفُ الدَّارَ لأُمِّ الغَمْرِ

دَعْ ذَا وحَبِّرْ مدْحَةً في نَصْرِ

فقال نصر: لا ذلك ولا هذا، ولكن بَيْنَ الأمرين.

وليس لمتأَخِّرِ الشعراءِ أن يَخرجَ عن مذهب المتقدّمين في هذه الأَقسام؛ فيقفَ على منزلٍ عامر، أو يبكي عند مُشَيَّدِ البنيان؛ لأَنَّ المتقدّمين وقفوا على المنزل الداثر، والرسم العافِي، أو يرحلَ على حمارٍ أو بغلٍ ويصفَهما؛ لأنَّ المتقدّمين رَحَلوا على الناقة والبعير، أو يَرِدَ على المياه العِذَابِ الجوارِي؛ لأَنَّ المتقدّمين وَرَدوا على الأواجنِ الطَّوَامِي، أو يقطعَ إلى الممدوح منابتَ النرجسِ والآسِ والورد؛ لأَنَّ المتقدّمين جَرَوا على قطع منابت الشيح والحَنْوةِ والعَرَارَةِ[3].

الشاعر المتكلِّف

فالمتكلِّفُ هو الذي قوَّم شعره بالثِّقاف، ونقَّحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر؛ كزُهَيْرٍ والحُطَيْئَةِ. وكان الأصْمَعيُّ يقول: زُهَيْرٌ والحُطيْئَةَ وأشباهُهما من الشعراء عَبيدُ الشعر؛ لأنَّهم نقَّحوُه، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين، وكان الحُطَيْئَةُ يقول: خيرُ الشعر الحَوْلِيُّ المُنَقَّح المحكَّك. وكان زُهَيْرٌ يسمِّي كُبْرَ قصائِده: الحوليَّات.

وقال عدي بن الرِّقاع:

وقَصيدَةٍ قَدْ بِتُّ أَجْمَعُ بَيْنَها

حَتَّى أُقَوِّمَ مَيْلَها وسِنَادَها

نَظَرَ المُثَقِّفِ في كُعُوبِ قَنَاتِهِ

حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافُهُ مُنْآدَها

بواعث الشعر

وللشعرِ دواعٍ تحث البطيءَ، وتبعثُ المتكلِّف؛ منها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطربَ، ومنها الغضب.

وقيل للحطيئة: أيُّ الناس أَشْعَرُ؟ فأَخرج لساناً دقيقاً كأنَّه لسانُ حيَّة، فقال: هذا إذا طمع.

وهذه عندي قصَّة الكُمَيْت في مدحِه بني أُمَيَّة وآلِ أبي طالبٍ؛ فإِنَّه كان يتشيَّع وينحرفُ عن بني أُمَيَّة بالرأي والهوى، وشعرُه في بني أُمَيَّة أجوَدُ منه في الطالبيين، ولا أرى علة ذلك إِلَّا قوَّةَ أسباب الطمع، وإِيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة.

وقيل لكُثَيِّر: يا أبا صَخْرٍ، كيف تصنع إذا عَسُرَ عليك قول الشِّعر؟ قال: أَطُوف في الرِّباع المخلية، والرياض المعشبة، فيسهل عليَّ أرصَنُه، ويُسرِعُ إِليَّ أحسنُه.

وقال عبد الملك بن مَرْوان لأَرْطاة بن سُهَيَّة: هل تقول الآن شعراً؟ فقال: كيف أقول وأنا ما أشرب ولا أطرب ولا أغضبُ؟! وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه.

الشاعر المطبوع

وللشعر تاراتٌ يبعد فيها قريبه، ويَستصعِب فيها رَيِّضه، وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات؛ فقد يتعذَّر على الكاتب الأديب، وعلى البليغ الخطيب، ولا يُعْرَف لذلك سببٌ، إلَّا أن يكون من عارض يعْترِضُ على الغَريزِة؛ من سُوء غذاءٍ، أو خاطر غَمّ.

وكان الفَرَزْدَق يقول: أنا أَشعرُ تَمِيمٍ عند تميمٍ، وربما أَتَتْ عليَّ ساعةٌ ونزعُ ضرس أَسهلُ عليَّ من قول بيت.

وللشعر أوقاتٌ يُسْرِعُ فيها أَتِيُّه، ويسمحُ فيها أبِيُّه؛ منها أَوَّلُ الليل قبل تَغَشِّي الكَرَى، ومنها صدرُ النهار قبلَ الغَدَاء، ومنها يومُ شرب الدواء، ومنها الخلوةُ في الحبس والمسير. ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ورسائل الكتاب.

والمطبوع من الشعراء من سَمَح بالشعر واقتدر على القوافي، وأَراكَ في صدر بيته عَجُزَه، وفي فاتحته قافيتَه، وتبَّينت على شعره رونقَ الطبع ووَشْيَ الغريزة، وإذا امتُحِن لم يتلَعْثَمْ ولم يَتَزَحَّرْ.

وقال أَبو عِمْران المَخْزُومي: أتيتُ مع أبي والياً على المدينة من قُرَيش، وعنده ابن مُطَيْرٍ، وإذا مَطَرٌ جَوْدٌ، فقال له الوالي: صِفْهُ. فقال: دعني حتى أُشرِفَ وأَنظرَ. فأشرفَ ونَظَر، ثمَّ نزل فقالَ:

كَثُرَتْ لِكَثْرَةِ قَطْرِهِ أَطْبَاؤُهُ

فإذَا تَحَلَّبَ فَاضَتِ الأَطْبَاءُ

شعراء وحكايات

امرؤ القيس وأبوه

وكان امرؤ القيس طرده أبوه لمَّا صنَع في الشعر بفاطمة ما صنَع، وكان لها عاشقاً، فطلبها زماناً فلم يَصِلْ إليها، وكان يطلب منها غِرَّةً، حتَّى كان منها يومَ الغدير بدَارة جُلْجُل ما كان، فقال:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيب ومَنْزِلِ

فلما بلغ ذلك حُجْراً أَباه، دعا مولًى له يقال: له ربيعة، فقال له: اقتل امرأَ القيس، وأْتِني بعينيه. فذبح جُؤْذَراً فأتاه بعينيه، فندم حُجْر على ذلك، فقال: أَبيتَ اللَّعْنَ! إني لم أَقتله. قال: فأْتني به. فانطلق، فإذا هو قد قال شعراً في رأس جبلٍ؛ وهو قوله:

فلا تَتْرُكَنِّي يا رَبِيعَ لِهذِهِ

وكُنْتُ أَرانِي قبْلَها بِكَ واثِقا

فردَّه إلى أبيه، فنهاه عن قول الشعر، ثم إنَّه قال:

أَلَا انْعَمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالي

فبلغ ذلك أباه فطرده، فبلغه مقتل أبيه وهو بدَمُّون، فقال:

تَطَاوَلَ اللَّيْلُ عَلَيْنَا دَمُّونْ

دَمُّونُ إنَّا مَعْشَرٌ يَمَانُونْ

وإِنَّنَا لِأَهْلِنَا مُحِبُّونْ

ثم قال: ضيَّعني صغيراً، وحمَّلني دمه كبيراً، لا صحوَ اليوم، ولا سُكر غداً، اليومَ خمرٌ، وغداً أمرٌ. ثم قال:

خَلِيلَيَّ ما في اليوم مَصْحًى لشارِبٍ

ولا في غَدٍ إِذْ كان ما كان مَشْرَبُ

ثم آلى لا يأْكل لحماً، ولا يشرب خمراً، حتَّى يثأر بأبيه.

ثم استجاش بكرَ بن وائل، فسار إليهم وقد لَجَؤوا إلى كِنَانَةَ، فأَوقع بهم، ونَجَتْ بنو كاهل من بني أسد.

امرؤ القيس وابنة القيصر

ونظرت إليه ابنة قيصر فعشقتْه، فكان يأْتيها وتأْتيه، وطَبِنَ[4] الطَّمَّاح بن قيسٍ الأَسَدِي لهما، وكان حُجْرٌ قتَلَ أباه، فوشى به إلى الملِكِ، فخرج امرؤ القيس متسرًّعا، فبعث قيصر في طلبهِ رسولاً، فأدركه دون أَنْقِرَةَ بيوم، ومعه حُلَّةٌ مسمومة، فلبسها في يومٍ صائفٍ، فتناثر لحمه، وتفطَّر جسده، وكان يحملُه جابر بن حُنَيٍّ التغلبيُّ، فذلك قوله:

إِذَا المَرْءُ لم يَخْزُنْ عليه لِسَانَهُ

فلَيْسَ على شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَّانِ

وكان أعور سُنَاطاً[5]، قصيراً حَمْشَ الساقين، فقالت ابنته: ما رأيت كاليوم ساقَيْ وافٍ؟ فقال لابنته: يا بُنَيَّةُ، هما ساقا غادرٍ شرٌّ! وقال:

لَقَدْ آلَيْتُ أَغْدِرُ في جَدَاعِ

ولوْ مُنِّيتُ أُمَّات الرِّبَاعِ

لأَنَّ الغَدْرَ في الأَقْوَامِ عارٌ

وإنَّ الحُرَّ يَجْزَأُ بالكُرَاعِ

امرؤ القيس والسَّمَوْءَل

ولم يزل ينتقل من قومٍ إلى قوم بجبليْ طيِّئ، ثم سَمَت به نفسه إلى مَلِك الروم، فأتى السموْءَل بن عادِيَاء اليهوديَّ؛ مَلِكَ تَيْماء- وهي مدينة بين الشأم والحجاز- فاستودِعَهُ مئةَ درعٍ وسلاحاً كثيراً، ثم سار ومعه عَمْرُو بن قَمِيئَة؛ أحدُ بني قيس بن ثعلبة، وكان من خَدَم أبيه، فبكى ابنُ قميئَة، وقال له: غَرَّرتَ بنا. فأنشأ امرؤُ القيس يقول:

بكى صاحبِي لَمَّا رأَى الدَّرْبَ دُونَهُ

وأَيْقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بقَيْصَرَا

فقُلْتُ لَهُ: لا تَبْكِ عَيْنُكَ إنمَا

نُحَاوِلُ مُلْكاً أَو نَمُوتَ فنُعْذَرَا

وبَلَغَ الحارث بن أبي شَمِرٍ الغسّانيَّ- وهو الحارث الأكبر- ما خلَّفَ امرؤ القيس عند السموءل، فبعث إليه رجلاً من أهل بيته، يقال له: الحارث بن مالك، وأمره أن يأخذ منه سلاح امرئ القيس وودائعه، فلما انتهى إلى حصن السموْءَل أغلقه دونه، وكان للسموْءَل ابنٌ خارج الحصن يتصيَّد، فأخذه الحارث، وقال للسموْءَل: إنْ أنت دفعت إليّ السلاح، وإلَّا قتلتُه. فأبى أن يدفع إليه ذلك، وقال له: اقتل أسيرك؛ فإني لا أدفع إليك شيئاً. فقتلَه، وضربت العرب المثل بالسموءل في الوفاء، وقد ذكره الأعشى في قصَّة له قد ذكرتُها في أخباره.

حكومة أُم جندب

احتكمِ علقمة الفحل مع امرئ القيس إلى امرأته أُمِّ جُنْدُب لتَحكمَ بينهما، فقالت: قُولَا شعراً تصفان فيه الخيل، على رَوِيٍّ واحد وقافية واحدةٍ. فقال امرو القيس:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي على أُمِّ جُنْدَبِ

لنَقْضِيَ حاجاتِ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ

وقال علقمة:

ذَهَبْتَ منَ الهجْرَانِ في كُلّ مَذْهَبِ

ولم يَكُ حَقًّا كُلُّ هذا التَّجَنُّبِ

ثم أَنشداها جميعاً، فقالت لامرئ القيس: علقمةُ أَشعرُ منك. فقال: وكيف ذاكِ؟ قالت: لأنَّك قلتَ:

فللسَّوْطِ أُلْهُوبٌ ولِلساق درَّةٌ

وللزَّجْرِ منه وَقْعُ أَخْرَجَ مُهْذِبِ

فجَهَدت فَرَسَك بسوطك، ومَرَيْتَه بساقك[6]. وقال علقمة:

فأَدْرَكَهُنَّ ثانِياً من عِنانِهِ

يَمُرُّ كمَرِّ الرائحِ المُتَحَلِّبِ

فأدركَ طريدته وهو ثانٍ من عنانِ فرسه؛ لم يضربه بسوط، ولا مَرَاه بساقٍ، ولا زَجَرَه. قال: ما هو بأَشعرَ منِّي، ولكنَّك له وامقٌ! فطلَّقها، فخَلَفَ عليها علقمةُ، فسُمِّي بذلك (الفَحْل). ويقال: بل كان في قومه رجل يقال له: علقمة الخَصِيُّ، ففرَّقوا بينهما بهذا الاسم.

ومن جيِّدِ قوله:

فإِنْ تَسْألونِي بالنِّسَاءِ فإنّني

بَصِيرٌ بأَدْواءِ النِّسَاءِ طَبيبُ

إِذَا شاب رأْسُ المَرْءِ أَو قَلَّ مالُه

فليس له في وُدِّهِنَّ نَصِيبُ

يُرِدْنَ ثَرَاءَ المالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ

وشَرْخُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجيبُ

في بلاط المناذرة
حسّان في بلاد المناذرة

قال حسّان بن ثابت: رحلت إلى النعمان، فلقيتُ رجلاً فقال: أين تريد؟ فقلت: هذا الملك. قال: فإنَّك إذا جئتَه متروكٌ شهراً، ثم يَسألُ عنك رأسَ الشهر، ثم أنتِ متروكٌ شهراً آخر، ثم عسى أن يأْذَن لك، فإن أنت خلوتَ به وأعجبتَه فأنت مُصيبٌ منه، وإن رأيتَ أبا أمامةَ النابغةَ فاظْعَنْ؛ فإنَّه لا شيء لك. قال: فقدمت عليه، ففعل بي ما قال، ثم خلوتُ به وأصبت منه مالاً كثيراً ونادمته، فبينا أنا معه في قُبِّة، إذ جاء رجل يَرْجُزُ حول القبَّة:

أَنِمْتَ أَمْ تَسْمَعُ رَبَّ القُبَّهْ

يا أَوْهَبَ الناسِ لعَنْسٍ صُلْبَهْ

فقال النعمان: أبو أمامة! فأذنوا له، فدخل فحيّاه وشرب معه، ووردت النّعَمُ السُّود، ولم يكن لأحد من العرب بعيرٌ أسود يُعلم مكانه، ولا يَفْتَحِلُ أحد فحلاً أسودَ، فاستأْذنه أن ينشده، فأنشده كلمتَه التي يقول فيها:

فإنَّكَ شَمْسٌ والمُلُوكُ كَوَاكبٌ

إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنَّ كَوْكَبُ

فدفع إليه مئة ناقةٍ من الإبل السود، فيها رِعاؤها، فما حسدتُ أحداً حسَدِي النابغة؛ لما رأيتُ من جزيل عطيته، وسمعت من فضل شعره.

ثم إنَّ النعمان بُلِّغ عنه شيئاً، فنَذَر دمَه، فسار النابغة إلى ملوك غسّان. وقد اختلفوا في السبب الذي بلغه عنه؛ فقال قوم: ذكروا أنَّه هجاه.

صحيفة المُتَلَمِّس

المتلمّس هو جرير بن عبد المسيح، من بني ضُبَيعة، وأَخوالُه بنو يَشْكُرَ، وكان ينادم عمرَو بن هندٍ ملك الحِيرة، وهو الذي كان كَتَبَ له إلى عامل البَحْريْن مع طَرَفَةَ بقتله، وكان دَفَع كِتابه إلى غلام بالحيرة ليقرأه، فقال له: أَنْت المُتَلَمِّس؟ قال: نعم. قال: فالنجاء؛ فقد أمر بقتلك. فنبذ الصحيفة في نهر الحيرة، وكان أشار على طرفة بالرجوع، فأبى عليه، فهرب إلى الشأم، فقال:

مَنْ مُبْلِغَ الشعَرَاءِ عن أخَوَيْهِمُ

خَبَرًا، فتَصْدُقَهُمْ بذاكَ الأَنْفُسُ

أَوْدَى الذي عَلِقَ الصَّحِيفة منهما

ونَجَا حِذَارَ حِبائِهِ المُتَلَمِّسُ

أَلْقِ الصَّحِيفَةَ لا أَبا لكَ إِنَّه

يُخْشَى عليك من الحِباءِ النِّقْرِسُ

وسُمِّي المتلمّس بقوله:

وذاكَ أَوَانُ العِرْضِ جُنَّ ذُبابُه

زَنَابِيرُهُ والأَزْرَقُ المُتَلَمِّسُ

العِرْض: الوادي.

وكان المتلمّس ينادِم عمرو بن هند ملك الحيرة هو وطَرَفَة بن العبد، فهجَواه، فكتب لهما إلى عامله بالبَحْرَيْن كتابَيْن، أوهمهما أنَّه أمر لهما فيهما بجوائز، وكتب إليه يأمره بقتلهما، فخرجا حتَّى إذا كانا بالنَّجَف، إذا هما بشيخ على يسار الطريق يُحْدِث، ويَأْكُل من خبزٍ في يده، ويتناولُ القملَ من ثيابه فيَقْصَعُه، فقال المتلمّس: ما رأيتُ كاليوم شيخاً أحمق! فقال الشيخُ: وما رأيتَ من حُمْقِي؟ أُخْرِجُ خَبيثاً، وأُدْخِلُ طيباً، وأقتلُ عدواً، أحمقُ منِّي واللهِ مَن حامِلٌ حَتْفَه بيده! فاستراب المتلمِّس بقوله، وطلع عليهما غلامٌ من أهل الحِيرة، فقال له المتلمّس: أتقرأ يا غلام؟ قال: نعم. ففكَّ صحيفتَه ودفَعها إليه، فإذا فيها: أمّا بعدُ، فإذا أتاك المتلمِّسُ فاقطعْ يديه ورجليه، وادْفِنْه حيًّا. فقال لطَرَفَة: ادفعْ إليه صحيفتَك يقرأها؛ ففيها والله ما في صحيفتي. فقال طَرَفة: كلَّا، لم يكن ليجترئ عليَّ! فقَذَف المتلمِّس بصحيفته في نهر الحِيرة، وأخذ نحو الشأم، وأخذ طَرَفة نحو البَحْرين، فضُرب المثل بصحيفة المتلمِّس.

طَرَفة بن العبد

وكان أَحدث الشعراء سِنًّا، وأقلهم عُمْراً، قُتل وهو ابن عشرين سنة، فيقال له: (ابن العشرين)، وكان ينادمُ عمرَو بن هند، فأشرفَتْ ذات يومٍ أختُه، فرأى طرفة ظلَّها في الجام الذي في يده، فقال:

أَلا يا بِأبِي الظَّبْيُ الْـ

ـلَذي يَبْرُقُ شَنْفَاهُ

ولوْلا المَلِكُ القاعـ

ـدُ قد أَلْثَمَني فَاهُ

فكتب له عمرو بن هند إلى الرَّبيع بن حَوْثَرَةَ- عامِله على البَحْرَيْن- كتاباً أَوهمه فيه أَنَّه أَمر له بجائزةٍ، وكتب للمتلمّس بمثل ذلك. أمّا طَرَفةَ فمضى بالكتاب، فأخذه الربيع فسقاه الخمر حتّى أثمله، ثم فَصَدَ أَكْحَلَه، فقَبْرُه بالبحرين.

وهو الذي يقول:

فلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ من عِيشَةِ الفَتَى

وجَدِّكَ لم أَحْفِلْ متى قام عُوَّدِي

فمنهنَّ سَبْقِي العاذِلاتِ بشَرْبَةٍ

كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ

وكَرِّي إذا نادَى المُضافُ مُحَنَّباً

كَسِيدِ الغَضَى- نَبَّهْتَهُ- المُتَوَرِّدِ

وتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ

ببَهْكَنَةٍ تَحْتَ الخِباءِ المُعمَّدِ

وقد مرَّ لَبيدٌ بِمجلسٍ لِنَهْدٍ بالكوفة، وهو يتوكَّأُ على عَصًا، فلمّا جاوز أمروا فتًى منهم أن يَلحقَه فيسألَه: مَن أشعرُ العرب؟ ففعل، فقال له لَبيدٌ: الملِك الضِلِّيل؛ يعني امرأ القيس. فرجع فأخبرهم، قالوا: ألَا سألته: ثم مَن؟ فرجع فسأله، فقال: ابنُ العشرين؛ يعني طَرَفة. فلما رجع قالوا: ليتَك كنت سألته: ثم مَن؟ فرجع فسأله، فقال: صاحب المِحْجَن؛ يعني نفسه.

لقيط وكسرى

هو لَقِيطُ بن مَعْمَر، من إيادٍ، وكانت إيادٌ أَكثرَ نِزَارٍ عدَداً، وأَحسنَهم وجوهاً، وأَمدَّهم وأَشدَّهم وأمنعَهم، وكانوا لَقَاحاً لا يؤدُّون خَرْجاً[7]، وهم أوَّلُ مَعَدِّيٍّ خَرج من تِهامةَ، فنزلوا السَّوَادَ، وغَلبوا على ما بين البَحْرَيْن إلى سِنْدَادَ والخَوَرْنَقِ، وسِنْدَادُ نهرٌ كان بين الحِيرة إلى الأُبُلَّة، وكانوا أغاروا على أموالٍ لأنوشروان فأخذوها، فجهَّز إليهم الجيوشَ، فهزموهم مرَّةً بعد مرَّةٍ، ثم إن إياداً ارتحلوا حتَّى نزلوا الجزيرة، فوجَّه إليهم كسرى بعد ذلك ستِّين ألفاً في السلاح، وكان لقيطٌ متخلِّفاً عنهم بالحِيرة، فكَتب إليهم:

سَلَامٌ في الصَّحِيفَة من لَقِيطٍ

إلَى مَن بالجزيرة من إيادِ

بأَنَّ اللَّيْثَ كِسْرَى قد أَتَاكُمْ

فلا يَشْغَلْكُمُ سَوْقُ النِّقَادِ

أتاكم مِنْهُمُ سِتّونَ ألفاَ

يَزُجُّون الكَتَائِبَ كالجَرَادِ

على حَنَق أَتَيْنَكُمُ، فهذَا

أوَانُ هَلاكِكُمْ كهَلَاكِ عَادِ

فاستعدَّت إِيادٌ لمحاربة جنود كسرى، ثم التَقَوْا، فاقتتلوا قتالاً شديداً، أُصيبَ فيه من الفريقين، ورجعت عنهم الخيلُ، ثم اختلفوا بعد ذلك؛ فلحقت فرقةٌ بالشأْم، وفرقةٌ رجَعَت إلى السواد، وأقامت فرقةٌ بالجزيرة.

المُنَخَّل والمتجرِّدة

هو المُنَخَّلُ بن عُبيد بن عامر، من بني يَشْكُرَ، وهو قديمٌ جاهليٌّ، وكان يشَبِّبُ بهنْدٍ أُختِ عَمرو بن هند، ولها يقول:

يا هنْدُ هَلْ من نائلٍ

يا هنْدُ للعانِي الأَسِيرِ

وكان المنخَّل يُتَّهَمُ بالمُتَجَرِّدَة امرأة النعمان بن المُنْذر، وكان للنعمان منها ولدان، كان الناس يقولون: إنَّهما من المنخَّل، وهو القائل في النابغة حين وصف المتجرّدة في قوله: ما يعرف هذا إلّا من جَرَّبَ! وكان أيضاً يُتَّهَمُ بامرأةٍ لعمرو بن هند، وكان جميلاً. وهو القائل:

ولَقَدْ دَخَلْتُ على الفَتَا

ةِ الخدْرَ في اليَوْمِ المَطيرِ

الْكاعبِ الحَسْنَاءِ تَرْ

فُلُ في الدمَقْسِ وفي الحَرِيرِ

فدَفَعْتُها فَتَدَافَعَتْ

مَشْيَ القَطاةِ إلى الغَدِيرِ

وعَطَفْتُها فَتَعَطَّفَتْ

كَتَعَطُّفِ الظَّبْيِ الغَرِيرِ

فَتَرَتْ وقالَتْ: يا مُنَخـ

ـخَلُ ما بِجِسْمك من فُتُورِ؟

ما شَفَّ جِسْمِي غَيْرُ حُبْـ

ـبِكِ فاهْدئي عَنِّي وسِيرِي

ولَقَدْ شَرِبْتُ منَ المُدَا

مَةِ بالصَّغيرِ وبِالكَبِيرِ

وشَرِبْتُ بالخَيْلِ الإنَا

ثِ وبالمُطَهَّمَة الذُّكُورِ

فإذا سَكِرْتُ فإِنَّنِي

رَبُّ الخَوَرْنَقِ والسَّديرِ

وإذا صَحَوْتُ فإِنَّني

رَبُّ الشُوَيْهَة والبَعيرِ

يا هِنْدُ هَلْ من نائلٍ

يا هِنْدُ للعانِي الأَسِيرِ

وأُحبُّها وتُحِبُّنِي

وَيُحبُّ ناقَتها بَعِيرِي

وقتله عمرو بن هند.

المترجمان: عديّ بن زيد وابنه

وكان عديّ تَرْجُمانَ أَبَرْوَازَ ملك فارس وكاتِبَه بالعربيَّة، فلما قُتل عمرو بن هند وَصَفَ له عديُّ بن زيدٍ النعمانَ بن المنذر بن امرئ القيس، وأشار عليه بتوليته العرب، واحتال في ذلك حتى ولَّاه من بين إخوته، وكان أدمَّهم وأقبحَهم. ثم بلغ النعمانَ عن عديّ شيءٌ فخافه، فاحتال حتى وقَع في يده، فحبسه، فقال في الحبس أشعاراً وبعث بها إليه، ومنها قوله:

أَبْلِغِ النُّعْمانَ عنِّي مَأْلُكاً

أَنني قد طال حَبْسِي وانْتِظَارِي

لو بِغيرِ الماءِ حَلْقِي شَرِقٌ

كُنتُ كالغَصَّانِ بالماءِ اعْتِصارِي

فلم يَزل في حبسه حتَّى مات، ويقال: إنه قتله.

وكان له ابنٌ يقال له: زيد بن عديّ، فتوصَّل إلى أَبَرْوَازَ حتَّى حلَّ محلَّ أَبيه، وذكر زيدٌ لأَبرواز نساءَ آلِ المنذر، ونَعَتَهُنَّ له بالجَمال، فكتب أبرواز إلى النعمان يأمره أن يزوّجه أَختَه أو ابنتَه، فلما قرأ النعمان الكتاب قال للرسول: فأَين المَلِك عن مَهَا السَّوادِ؟ فرجع الرسول فأخبره بما قال، وحرَّف زيدٌ القول عنده، وقال: فأَين هو عن بَقَر العراق[8]؟ فطلبه أبرواز، وهرب النعمانُ منه حيناً، ثم بَدَا له أن يأْتِيَه، فأتاه بالمدائن، فصفَّ له كسرى ثمانيةَ آلافِ جاريةٍ صَفَّين، فلمّا صار بينهما قُلْنَ له: أمَا فينا للمَلِك غنًى عن بَقَر العراق؟! وعَلِمَ النعمانِ أَنَّه غيرُ ناج منه، وأَمر به كسرى فحُبس في ساباطِ المدائن، ثم أُلقِي تَحَت أرجل الفيلَة، فتوَطَّأَتْه حتَّى مات.

وذكر أبو عُبيدة عن أَبي عمرو بن العَلاء؛ قال: كان عديُّ بن زيد في الشعراء بمنزلة سُهيلٍ في النجوم، يعارضُها ولا يَجري مَجاريها. قال: والعرب لا تَروي شعرَه؛ لأَنَّ أَلفاظه ليست بنجديَّةٍ، وكان نصرانيًّا من عِباد الحِيرة، قد قرأ الكتب.

عمرو بن كلثوم وعمرو بن هند

هو من بني تَغْلِب، جاهليٌّ قديم، وهو قاتل عمرو بن هند ملك الحِيرة، وكان سبب ذلك أَنَّ عمرو بن هند قال ذاتَ يوم لنُدَمائِه: هل تعلمون أنَّ أحداً من العرب تأْنَفُ أُمُّه من خدمةِ أمِّي؟ فقالوا: نعم، عَمْرُو بن كُلْثوم. قال: ولِمَ ذلك؟ قالوا: لأنَّ أَباها مُهَلْهل بن ربيعة، وعمَّها كُلَيبُ وائل أَعزُّ العرب، وبعلَها كلثومُ بنُ مالك بن عَتَّاب أفرسُ العرب، وابنَها عمرُو بن كلثوم سيدُ مَن هو منه. فأَرسل عمرو بن هندٍ إلى عمرو بن كلثوم يَستزيرُه، ويسأله أن يُزير أُمَّه أمَّه، فأقبل عمرو بن كلثوم من الجَزيرة إلى الحِيرة في جماعة من بني تغلب، وأقبلتْ ليلى بنتُ مُهَلْهلٍ في ظَعْنٍ من بني تغلب، وأمر عمرو بن هند برُواقِه فضُرِب فيما بين الحِيرة والفُرات، وأرسل إلى وُجوه مملكته فحضَروا،

وأتاه عمرو بن كلثوم في وجوه بني تغلب، فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رُوَاقه، ودخلتْ ليلى بنتُ مهلهلٍ- أمُّ عمرو بن كلثوم- على هندٍ في قبَّةٍ في جانب الرُّواق.

وهندٌ أمُّ عمرو بن هند عِمَّة امرئ القيس الشاعر، وليلى بنت مهلهل أمُّ عمرو بن كلثوم هي بنت أخي فاطمة بنت ربيعة أمِّ امرئ القيس، وقد كان أمر عمرُو بن هند أمَّه أن تُنَحِّي الخَدَمَ إذا دعا بالطَّرَفِ، وتَستخدِمَ ليلى، فدعا عمرو بن هندٍ بمائدةٍ فَنصَبَها، فأكلوا، ثم دعا بالطَّرَفِ، فقالت هند: يا ليلى، ناوليني ذلك الطَّبَقَ. فقالت ليلى: لتَقُمْ صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فأعادتْ عليها وألَحَّتْ، فصاحتْ ليلى: وَاذُلَّاه! يا لَتَغْلِبَ! فسمعها عمرُو بن كلثوم، فثار الدم في وجهه، ونظر إلى عمرو بن هند، فَعَرَفَ الشرَّ في وجهه، فقام إلى سيفٍ لعمرو بن هندٍ معلّقٍ بالرُّواق، ليس هناك سيفٌ غيره، فضرب به رأس عمرو بن هندٍ حتى قَتَلَه، ونادى في بني تغلب، فانتهبوا جميع ما في الرُّواق، وسَاقُوا نَجَائِبَهُ، وساروا نحوَ الجزيرة، ففي ذلك يقولُ عمرو بن كلثومٍ:

بأَيِّ مَشِيَّةٍ عَمْرَو بنَ هِنْدٍ

تُطِيعُ بنا الوُشاةَ وتَزْدَرِينَا

تَهَدَّدْنَا وأَوْعِدْنا رُوَيْداً

مَتَى كُنَّا لأُمِّكَ مَقْتَوِينَا

وقال الفَرَزْدَق لجريرٍ:

ما ضَرَّ تَغْلِبَ وائِلٍ أَهَجَوْتَها

أَم بُلْتَ حَيْثُ تَنَاطَحَ البَحْرَانِ

قَوْمٌ هُمُ قَتَلُوا ابنَ هِنْدٍ عَنْوَةً

عمْراً، وهُمْ قَسَطُوا على النُّعْمانِ

وقال أُفْنُون التَّغْلبيُّ:

لَعَمْرُكَ ما عَمْرُو بنُ هِنْد إِذَا دَعَا

لِيُخْدِمَ أُمِّي أُمَّهُ بِمُوَفَّقِ

وعمرو بن كلثوم هو القائل:

أَلاَ هُبّي بصَحْنِكِ فاصْبَحِينَا

وكان قام بها خطيباً فيما كان بينه وبين عمرو بن هند، وهي من جيد شعر العرب القديم، وإِحدى السَّبع، ولشغف تَغْلِبَ بها وكثرةِ روايتهم لها قال بعض الشعراء:

أَلْهَى بَني تَغْلِبٍ عَنْ كلّ مَكْرُمَةٍ

قَصِيدَةٌ قالها عمرُو بن كُلْثُومِ

يُفاخِرُونَ بها مُذْ كان أَوَّلُهُمْ

يا لَلرِّجالِ لِفَخْرٍ غَيْرِ مَسْؤُومِ

حاتم الطائي يخطب ماويَّة

وأَتى حاتمٌ مَاوِيَّةَ بنت عَفْزَرٍ يخطُبُها، فوجد عندها النابغة الذُّبياني ورجلاً من النَّبِيتِ يَخطُبانها، فقالت لهم: انقلِبوا إلى رحالِكم، وليقُل كل رجلٍ منكم شعراً يَذكر فيه فَعَالَه ومَنْصِبَه؛ فإِني متزوِّجة أَكرمَكم وأَشعرَكم. فانطلَقوا، ونَحر كلُّ رجل منهم جَزُوراً، ولبست ماويَّة ثياباً لأَمَةٍ لها واتَّبعتهم، فأَتَت النَّبيتيَّ فاستطعمتْه، فأَطعمها ذَنَبَ جَزُوره، فأَخذتْه، وأَتَت النابغة فأَطعمها مثل ذلك، فأَخذتْه، وأَتَتْ حاتماً- وقد نَصب قُدورَه- فاستطعمتْه، فقال: انتظري حتَّى تَبْلُغَ القِدْرُ إِنَاهَا[9]، فانتظرتْ حتَّى بَلَغَتْ، فأَطعمها أَعْظُماً مِن العَجُز، وقطعةً مِن السَّنام، وقطعةً من الحاركِ، ثم انصرفتْ، وأَهدى إِليها النابغة والنَّبيتيُّ ظَهْرَيْ جَزُورَيْهِما، وأَهدى إِليها حاتم مثلما أَهدى إلى امرأَةٍ من جاراتِه. وصبَّحوها، فاستنشدتْهم، فأَنشدَها النَّبِيتيُّ:

هَلا سَألْتِ هَداكِ الله ما حَسَبِي

عِنْدَ الشِّتَاءِ إِذَا ما هَبَّتِ الرِّيحُ

ثم استنشدت النابغة فأنشدها:

هَلَّا سَأَلْتِ بني ذُبْيَانَ ما حَسَبِي

إِذَا الدُّخَانُ تَغَشَّى الأَشْمطَ البَرَمَا

ثم استنشدت حاتماً فأنشدها:

أَماوِيَّ إني لا أَقُولُ لسائِلٍ

إِذَا جاءَ يَوْماً: حَلَّ في مالِنا نَذْرُ

وقد عَلِمَ الأَقْوَامُ لَوْ أَنَّ حاتِماً

أَرَادَ ثَرَاءَ المالِ كان له وَفْرُ

فلمّا فَرغ من إنشاده، دعتْ ماويَّة بالغَدَاء، فقُدِّمَ إلى كل رجلٍ ما كان أَطعمها، فنكَّس النَّبِيتيُّ والنابغةُ رؤوسهما، فلمَّا رأى حاتم ذلك رَمَى بالذي قُدِّمَ إليهما، وأطعمهما ممّا قُدِّم إليه، فتسلّلا لِوَاذاً، فتزوَّجت حاتماً.

شعراء في بلاط الغساسنة
صنّاجة العرب
الأعشى ميمون بن قيس

هو من سعد بن ضُبيعة بن قيسٍ، وكان أَعمى، ويكنى أبا بَصِير، وكان أبوه قيسٌ يُدْعى (قَتِيلَ الجُوع)؛ وذلك أنه كان في جبلٍ فدخل غاراً، فوقعت صخرة من ذلك الجبل، فسدَّت فَمَ الغارِ، فمات فيه جوعاً.

وكان جاهليًّا قديماً، وأدرك الإسلام في آخر عمره، ورحل إلى النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم ليُسْلِمَ، فقيل له: إنَّه يحرّم الخمر والزّنا، فقال: أتمتَّعُ منهما سنة ثم أُسْلِمُ! فمات قبلَ ذلك بقرية باليمامة.

وقالوا: إنَّ خُروجَهُ يريد النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم في صلح الحُدَيبِيَة، فسأله أبو سفيانَ بن حربٍ عن وجهه الذي يريد، فقال: أريد محمداً. فقال أبو سفيان: إنه يُحرِّم عليك الخمر والزِّنا والقِمارَ. فقال: أمّا الزِّنا فقد تَركَني ولم أتركه، وأما الخمر فقد قَضَيْتُ منها وَطَراً، وأما القِمار فلعلّي أُصِيبُ منه خَلَفاً. قال: فهل لك إلى خيرٍ؟ قال: وما هو؟ قال: بيننا وبينه هُدْنةٌ، فترجع عامَك هذا وتأْخُذُ مئةَ ناقةٍ حمراءَ، فإنْ ظَهرَ بعد ذلكَ أتيتَه، وإن ظَفرْنَا به كنتَ قد أصبتَ عِوَضاً من رِحْلَتِك. فقال: لا أبالي.

فانطَلَقَ به أبو سفيانَ إلى منزله، وجَمع إليه أَصحابَه، وقال: يا معشرَ قريش، هذا أَعشى قيس، وقد علمتم شعره، ولَئِنْ وصَل إلى محمد لَيُضَرَّبنَّ عليكمُ العربَ قاطبةً بشعره. فجَمعوا له مئةَ ناقة حمراء، فانصرف، فلمّا صار بناحية اليمامة ألقاه بعيرُه فقتله.

ويسمَّى (صنَّاجَةَ العرب)؛ لأَنه أَوَّلُ من ذَكَرَ الصَّنْج في شعره؛ فقال:

ومُسْتَجِيبٍ لصَوْت الصَّنْجِ تَسْمَعُه

إِذَا تُرَجِّعُ فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ

شَبَّه العُود بالصَّنْج.

وكان الأَعشى يَفِدُ على ملوك فارس؛ ولذلك كَثُرت الفارسيَّةُ في شعره. وسمعه كسرى يوماً ينشد، فقال: مَن هذا؟ فقالوا: اسْرُوذ كُويَذتازِي؛ أي: مُغَنِّي العرب، فأنشدَ:

أرِقْتُ وما هذا السُّهادُ المُؤَرِّقَ؟!

وما بيَ من سُقْمٍ وما بيَ مَعْشَقُ

فقال كسرى: فسِّروا لنا ما قال. فقالوا: ذَكر أَنه سَهرَ من غير سُقْمٍ ولا عِشْق! فقال كسرى: إن كان سَهر من غير سقم ولا عشق فهو لِصٌّ!!

حسان بن ثابت

هو حسَّانُ بن ثابتِ بن المنذر الأَنصاريُّ، ويُكنَى أَبا الوليد وأبا الحُسَام، وأُمُّه الفُرَيْعَةُ من الخَزْرَج، وهو جاهليٌّ إسلاميٌّ متقدِّمُ الإسلام، إلّا أنّه لم يَشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم مَشْهَداً؛ لأَنَّه كان جباناً. وكانت له ناصيةٌ[10] يُسْدِلُها بين عينيه، وكان يَضرب بلسانه روْثَةَ أَنفِه من طوله، ويقولُ: ما يسرُّني به مِقْوَلُ أَحد من العرب، واللهِ لو وضعتُه على شَعَرٍ لحَلَقَه، أَو على صخر لفَلَقَه. وعاش في الجاهليَّة ستِّين سنةً، وفي الإسلام ستين سنةً، ومات في خلافة معاويةَ، وعَميَ في آخر عمره.

قال الأَصْمَعيُّ: الشعرُ نَكِدٌ بابُه الشرُّ، فإذا دَخَلَ في الخير ضَعُفَ، هذا حسَّان بن ثابتٍ فحلٌ من فحول الجاهليَّة، فلمّا جاءَ الإسلام سَقَط شِعْرُه. وقال مرَّة أُخرى: شعِرُ حسَّان في الجاهليَّة من أَجود الشعر، فقُطِعَ متنه في الإسلامَ؛ لحال النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان حسَّان يَفِدُ على ملوكِ غَسَّانَ بالشام، وكان يمدحهم، ومن جيّد شعره قولُه فيهم:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عليهِمُ

بَرَدَى يُصَفقَ بالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

يُغْشَوْنَ حَتَّى ما تَهِرُّ كِلَابُهُمْ

لا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ المُقْبِلِ

وابن مارية: هو الحارث الأَعرج بن أبي شمرٍ الغَسَّانِيّ.

ولمَّا سار جَبَلَة بن الأَيْهم إلى بلاد الروم، وَرَدَ على ملك الروم رسولُ معاوية، فسأَله جَبَلَة عن حسِّان، فقال له: شيخٌ كبيرٌ قد عَمِيَ. فدَفَعَ إليه ألفَ دينار، وقال: ادفعْها إلى حسَّانٍ. قال: فلمَّا قدمتُ المدينة، ودخلتُ مسجد رسول الله ؛ رأيتُ فيه حسَّان بن ثابتٍ، فقلت له: صديقُك جَبَلَةُ يقرأُ عليك السلام. قال: فهات ما معك. فقلت: يا أبا الوليد، كيف علمتَ؟ قال: ما جاءتْني منه رسالةٌ قطُّ إلَّا ومعها شيءٌ.

وروى الأصمعي عن أهل المدينة؛ قال: بَعَث الغَسَّانِيُّ إلى حسانٍ بخمسمئة دينارٍ وكُسًى، وقال للرسول: إنْ وجدتَه قد مات فابْسُطْ هذه الثيابَ على قبره، واشْتَرِ بهذه الدنانير إبِلاً فانحرْها على قبره. فجاءَ فوجده حيًّا، فأخبره، فقال: لَوَدِدْتُ أنك وجدتَنِي ميْتاً!

قال بعضُ أهل المدينة: ما ذَكرتُ بيت حسانٍ إلا عُدْتُ في الفتوَّة؛ وهو قوله:

أَهْوَى حَدِيثَ النَّدْمانِ في فَلَقِ الصْـ

ـصُبْحِ وصَوْتَ المُغَرِّدِ الغَرِدِ

أبو مِحْجَن في قتال الفرس

هو من ثَقِيف، وكان مُولَعاً بالشراب، مشتهراً به، وكان سَعْدُ بن أبي وقَّاصٍ حبسه فيه، فلمّا كان يومُ القادِسيَّة، وبَلغه ما يفعل المشركون بالمسلمين، وهو عند أمِّ ولدٍ لسَعْدٍ؛ قال:

إذَا قُمْتُ عَنَّانِي الحَديدُ وغُلِّقَتْ

مَغَالِيقُ من دُوني تُصِمُّ المُنَادِيَا

وقد كُنْتُ ذَا أَهْلٍ كَثيرٍ وإخْوَةٍ

فَقَدْ تَرَكُوني واحداً لا أَخَا ليَا

هَلُمَّ سِلَاحي لا أَبَا لَكَ إنني

أَرَى الحَرْبَ لا تَزْدادُ إلَّا تَمَاديَا

فقالت له أُمُّ ولد سعدٍ: أَتَجْعَلُ لي- إنْ أَنا أَطلقتُك- أَن ترجع حتَّى أُعيدَكَ في الوَثاق؟ قال: نعم. فأَطلقَتْه، وركب فرساً لسَعْدٍ بَلْقاءَ، وحَمَل على المشركين، فجعل سعد يقول: لولا أَنَّ أَبا مِحْجَنٍ في الوَثاق لظننتُ أَنَّه أبو محجن وأَنَّها فَرسي! وانكشف المشركون، وجاء أبو مِحْجَنٍ فأعادته في الوَثاق، وأتتْ سعداً فأخبرتْه، فأرسل إلى أبي محجنٍ فأطلقَه، وقال: والله لا حبستُك فيها أبداً، قال أبو محجن: وأنا والله لا أشربُها بعد اليوم أبداً.

ودخل ابن أبي محجن على معاوية، فقال له معاوية: أبوك الذي يقول:

إذَا مُتُّ فادْفِني إلى جَنْبِ كَرْمَةٍ

تُرَوِّي عِظامِي بَعْد مَوتي عُرُوقُها

ولا تَدْفِنَنِّي بالفَلَاةِ فإنَّني

أَخافُ إذَا ما متُّ أَن لا أَذُوقُها

فقال ابن أبي محجن: لو شئتَ ذكرتُ أحسن من هذا من شعره. قال: وما ذاك؟ قال: قوله:

لا تَسْأَلِ الناسَ: ما مالي وكَثْرَتُهُ؟

وسائل القَوْمَ: ما حَزْمِي وما خُلُقِي؟

القَوْمُ أعْلمُ أني النبي صلى الله عليه وسلم من سَرَاتِهِمُ

إِذَا تَطِيشُ يَدُ الرِّعديدَة الفَرِقِ

قَدْ أَرْكَبُ الهَوْلَ مَسدُولاً عَسَاكرُهُ

وأَكْتُمُ السرَّ فيه ضَرْبَةُ العُنُقِ

الشعراء والحب
جميل بثينة

هو جَميل بنِ عبد الله بن مَعْمَر، ويكنى أَبا عمرو، وهو أحد عُشَّاق العرب المشهورين بذلك، وصاحبته بُثَينَة، وهما جميعاً من عُذْرَةَ.

والجمال في عُذْرَةَ والعشقُ كَثيرٌ؛ قيل لأَعرابيّ من العذريِّين: ما بال قلوبكم كأَنَّها قلوبُ طيرٍ تَنمَاثُ كما يَنمَاثُ الملح في الماء؟ أمَا تَجلَّدُون؟! قال: إنَّا لَننظر إلى محاجر أَعينٍ لا تَنظرون إليها. وقيل لآخر: ممَّن أنت؟ فقال: من قومٍ إذا أحبُّوا ماتوا، فقالت جاريةٌ سمعته: عُذْرِيٌّ وربِّ الكعبة.

وعَشِقَ جميلٌ بُثَيْنَة وهو غلامٌ صغير، فلمّا كَبِر خطبها فرُدَّ عنها، فقال الشعرَ فيها، وكان يأْتيها سرًّا، ومنزلها وادي القُرَى، فجمع له قومُها جمعاً ليأخذوه إذا أتاها، فحذَّرته بُثَيْنَةُ، فاستَخفى، وقال:

ولو أَنَّ أَلْفاً دُونَ بَثْنَةَ كُلُّهُمْ

غَيَارَى وكَل حارِبٌ مُزْمِعٌ قَتْلِي

لَحاولْتُها إمَّا نَهاراً مُجاهِراً

وإمَّا سُرَى لَيْلٍ ولو قُطعتْ رِجْلي

وهجا قومَها، فاستعدَوْا عليه مروان بن الحكم، وهو يومئذٍ عاملُ معاويةَ على المدينة، فنَذر ليقطعنَّ لسانَه، فَلَحِقَ بجُذَامٍ، وقال:

ففِي العيسِ مَنْجاةٌ وفي الأَرضِ مَهْرَبٌ

إذَا نَحْنُ رَفَّعْنا لَهُنَّ المَثَانِيَا

فأَقام هناك إلى أَن عُزل مروانُ عن المدينة، وانصرف إلى بلاده، وكان يختلفُ إليها سِرًّا.

وكان لبثينة أَخٌ يقال له جَوَّاسٌ، فشبَّب بأُختِ جميلٍ، فغضب جميلٌ، وتَواعدَا لمراجزةٍ، فغلَبه جميلٌ. ولما اجتمعوا لذلك قال أهل تَيْماء: يا جميلُ، قُلْ في نفسك ما شئتَ؛ فأَنتَ الباسلُ الجوادُ الجميل، ولا تَقُلْ في أَبيكَ شيئاً؛ فإنه كان لِصًّا بتيماء. وقالوا لجوَّاس: قُلْ وأنت دونَه في نفسِك، فقُلْ ما شئتَ في أبيك؛ فإنه صحبَ النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال كُثَيِّرٌ: قال لي جميلٌ: خُذْ لي موعداً من بُثينة. قلت له: هل بينَك وبينها علامةٌ؟ فقال لي: عهدي بها وهم بوادي الدَّوْم يَرْحَضُون ثيابَهم. فأَتيتُهم، فأَجِدُ أَباها قاعداً بالفِنَاءِ، فسلَّمتُ فردَّ، وحادثْتُه ساعةً حتى استنشدني، فأنشدتُه:

فقلتُ لها: يا عَزَّ أَرسَلَ صاحبي

على نَأْيِ دارٍ، والمُوَكَّلُ مُرْسَلُ

بأَنْ تَجْعَلي بَيْني وبَيْنَكِ مَوْعِداً

وأنْ تَأْمُريني بالذِي فيه أَفْعَلُ

وآخِرُ عَهدٍ منك يَوْمَ لَقِيتنِي

بأَسْفَلِ وادِي الدَّوْمِ والثَّوْبُ يُغْسَلُ

فضربتْ بثينة جانبَ الخدْر، وقالت: اخْسَأْ! فقال لها أبوها: مَهْيَمْ يا بثينة؟ قالت: كلب يأْتينا إِذَا نوَّم الناس من وراءِ هذه الرابية. قال: فأتيتُ جميلاً فأَخبرتُه أَنَّها واعَدَتْه وراء الرابية إِذا نوَّم الناس.

قال ابن قتيبة: هكذا حدَّثنا دِعْبِلُ بن عليّ الشاعر. وأَمَّا أبو عبد الله الزُّبَيْري فقال: التقَى جَميلٌ وكُثَيِّرٌ، فشكا أحدهُما لصاحبه أنه مُحْصَرٌ لا يَقْدِرُ أن يزور، فقال جميلٌ لكثيِّر: أنا رسولُك إلى عَزَّةَ، فأَخْبِرني بآخِرِ عهدٍ كان لك بها. قال كُثيِّر: فإِنَّ آخرَ عهدي أني مررتُ بها وبجواريها يغسلْنَ ثياباً بأسفلِ وادي الدَّوْم، فأْتهم فانْشُدْهم ثلاثَ ذَوْدٍ سُودٍ، ثم انظُرْ ما يقالُ لك. فأتاهم جميلٌ فجعل يَنْشُدُهم الذَّوْدَ، فقالت له جاريتُها: لقد رأيتُ ثلاثاً سُوداً مَرَرْنَ بالقاعِ خَلْفَنا، ثم عهدي بهنَّ وإحداهنَّ تَحْتَكُّ بالطَّلْحَة، ومضَى سائرُهُنَّ. فانصرفَ جميلٌ حتى أتى كُثيِّراً فأَخبره، فلمّا كان في بعض الليل أَتَيَا الطلحةَ، وأَتته عَزَّةُ وصاحبةٌ لها معها، فتحادثَا طويلاً، وجعل كُثيِّر يَرى عزَّة تنظر نحو جميلٍ، وكان جَميلٌ جَميلاً، وكان كُثيِّرٌ دميماً، فغضب كُثيِّرٌ وغار، فقال لجميل: انطلقْ بنا قبل أن نُصْبِحَ. فانطلَقَا، وقال:

رَأَيْتُ ابْنَةَ الضَّمْرِيِّ عَزَّةَ أَصْبَحَت

كمُحْتَطِبٍ ما يَلْقَ باللَّيلِ يَحْطِبِ

وكانَتْ تُمَنِّينَا وتَزْعُمُ أَنَّها

كَبيْضِ الأَنُوقِ في الصَّفَا المُتَنَصِّبِ

ثم قال كُثيِّر لجميل: متى عهدُك ببُثَيْنَة؟ قال: في أَوَّلِ الصَّيف، وقعةَ سحابةٍ بأَسفل وادي الدَّوْم، فخرجتْ ومعها جاريةٌ لها تغسل ثوباً، فلمّا رأتني أنكرتْني، فضربتْ بيدها إلى ثوبٍ في الماء فالْتَحَفَتْ به، وعرَفَتْني الجاريةُ، فعادتْ فطرحتْه في الماءِ، وتحادَثْنا حتَّى غابَتِ الشمسُ، فسألتُها الموعد، فقالت: أهلُها سائرون، ولم أَلْقَها بعدُ، ولم أَجِدْ أَحَداً آمَنُه أرسلُه إليها. فقال كُثيِّر: هل لك أَن آتِيَ الحيَّ فأَقْرَعَ ببيتٍ من شعرٍ، أو تَخْلُوَ فأُكلِّمَهَا؟ قال: نعم. فخرج كُثيِّرٌ حتى أَناخَ بهم، فقالوا: يا كُثيِّر، حدِّثْنا كيف قلتَ لزوجِ عزَّةَ حين أمرها أن تَسُبَّكَ؟ قال كُثيِّر: خرجَا يرميان الجِمَار، فوجَدَاني قد أَعْصَبَ النَّاس بي[11]، فطالعني زوجُها، فسمعني أُنشد:

خَليلَيَّ هذا رَبْعُ عَزَّةَ فَاعْقِلَا

قَلُوصَيْكُمَا ثُمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حَلَّتِ

فغار، فقال لعزّةَ: لتَغْضبنّه أو لأطلَقَنّكِ. فقالت مُكْرَهَةَ، فقلت:

هَنيئاً مَرِيئاً غَيْرَ داءٍ مُخَامِرٍ

لعَزَّة من أَعْرَاضنَا ما اسْتَحَلَّتِ

فقالت بثينةُ: أَحسنتَ والله يا كُثيِّر! قال كُثيِّر: وأبياتٌ قلتُها لعَزَّةَ:

أَرْسَلَنِي يا عَزَّ نَحْوَكِ صاحِبي

على طُولِ نَأْيٍ من حَبيبٍ ومُرْسَلِ

بأَنْ تَضْرِبِي بَيْنِي وبَيْنَك مَوْعداً

وأَنْ تُخْبِرِينِي ما الَّذي فيه أَفْعَلُ

بِآيَة ما جِئْنَاكِ يَوْماً عَشيَّةً

بأَسْفَلِ وادي الدَّوْمِ والثَّوْبُ يُغْسَلُ

فقالت بُثَيْنة: يا جاريةُ ابْغينا من الدَّوْمَات من حَجْرَةَ[12] البطحاء حَطَباً؛ لنذبح لكُثيِّر عريضاً من البَهْمِ ونشويَه له! قال كثيِّر: أنا أعجل من ذلك. فراح إلى جميلٍ فأخبره أن الموعد الدَّومات.

قال ابن قتيبة: أَرِقَ عبد الملك بن مروان ذات ليلةٍ، فقال: اطلبوا لي رجلاً يُحدِّثني. فخرجوا إلى المسجد، فوجدوا رجلاً، فأدخلوه، فقال له عبد الملك: من أنت؟ قال: أنا فلانٌ، وكنت من أصدق الناس لجميلٍ. قال: فحدِّثني عنه. قال: خرجتُ معه مرَّةً، حتى انتهينا إلى خباءٍ لآلِ بُثينة، وسَمعَتْ به، فأقبلتْ في نسوةٍ معها، وأقبل جميلٌ نحوَها، فقَعدن وقَعد، فتحادثوا ساعةً، ثم أَخْلَوْهما، فلم يَزَالا يتشكَّيَانِ حتَّى غَشيَنَا الصُّبْحُ، فودَّع كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه، ثم وضَع جميلٌ رجله في الغَرْز، فمالتْ إليه بثينْةُ فقالت: يا جميلُ ادْنُ مني. فمال إليها برأسه وعنقه، فسارَّتْه بشيءٍ، فخرَّ مغشيًّا عليه، ثم مضتْ، فأتيتُه فلم أزل عند رأسه حتَّى طلعت الشمس عليه، فقام ينفض رأسه وهو يقول:

فما مُكْفَهِرٌّ في رحًى مُرْجَحنَّةٍ

ولا ما أَسَرَّتْ في معادنها النَّحْلُ

بأَحْلَى منَ القَوْلِ الذي قُلْت بَعْدَما

تَمَكَنَ في حَيْزُومِ ناقَتِيَ الرِّجْل

فقال له عبد الملك: ويحك! فهل تدري ما سارَّتْه به؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين.

وذكر ابن عَيَّاشٍ قال: خرجتُ من تَيْماءَ، فرأيتُ عجوزاً على أَتانٍ، فقلت: ممَّن أَنت؟ قالت: من عُذْرة. قلتُ: هل تَرْوينَ عن بُثَيْنةَ وجميلٍ شيئاً؟ قالت: نعم والله، إنَّا لَعَلَى ماءٍ من الجِنَابِ[13]، وقد اتَّقَينا الطريقَ واعتَزَلنا؛ مخافةَ جيوشٍ تجيءُ من الشأم إلى الحجاز، وقد خرج رجالنا في سَفَر، وخلَّفوا عندنا غلماناً أحداثاً، وقد انحدر الغِلمان عشيَّةً إلى صرْم لهم قريبٍ منَّا، ينظرون إليهم ويتحدَّثون عند جوَارٍ منهم، فبقيتُ أنا وبُثَينة نسْتَرِمُّ[14] غَزْلاً لنا، إذ انحدَر علينا منحدرٌ من هَضْبَةٍ حذاءَنا، فسلَّم ونحن مستوحشون، فرددتُ السلامَ، ونظرتُ فإذَا أنا برجلٍ واقفٍ شَبَّهتُه بجميل، فدَنَا فأَثْبَتُّه، فقلت: أجميلٌ؟ قال: إي والله. فقلتُ: والله لقد عرَّضْتَنا ونفسَك شرًّا! فما جاء بك؟ قال: هذه الغُولُ التي وراءَك! وأشار إلى بُثينةَ، وإذَا هو لا يتماسَكُ، فقمتُ إلى قَعْبٍ فيه أَقطٌ مطحونٌ وتمرٌ[15]، وإلى عُكَّةٍ فيها شيءٌ من سَمْنٍ[16]، فعصرتُه على الأَقِط وأَدنيتُه منه، فقلتُ: أَصبْ من هذا. ففعَلَ، وقمت إلى سقاء لبنٍ، فصببتُ له في قَدَح وشَنَنْتُ عليه ماءً بارداً، وناولتُه فشرب فتراجَع. فقلت: لقد جُهِدتَ، فما أَمْرُك؟ قال: أردتُ مصْرَ، فجئتُ أُودِّعُكم وأُسلِّم عليكم، وأَنا والله في هذه الهَضْبة التي تَرَيْنَ منذُ ثلاثٍ، أَنتظرُ أَن أَجِدَ فُرجةً، حتَّى رأيتُ مُنْحَدَرَ فتيانكم العشيَّةَ، فجئتُ لأُحْدِثَ بكم عهداً. فحدَّثَنا ساعةً ثم ودَّعنا وانطَلق، فلم نَلْبَثْ إلّا يَسيراً حتى أَتانَا نَعيُّه من مصر.

قال ابن عَيِّاش: فظننتُ قوله:

فمَنْ كان في حُبِّي بُثَيْنَةَ يَمْتَرِي

فبَرْقاءُ ذي ضَالٍ عليَّ شَهيدُ

أنَّه أَراد هذه الهَضْبَةَ التي أقام فيها أَيَّاماً، ما أَكل وما شَرِبَ.

وقال سهل بن سعد: لقيني رجلٌ من أَصحابي، فقال: هل لك في جميل؛ فإنَّه ثقيلٌ؟ فدخلنا عليه وهو يَكيدُ بنفسه، وما يُخَيَّل لي أنَّ الموتَ يَكْرُثُه[17]، فقال: ما تقول في رجلٍ لم يَزْنِ قطُّ، ولم يشربْ خمراً قطُّ، ولم يقتلْ نفساً حراماً قطُّ، يَشهد أنَّ لا إله إلا الله؟ فقلت: أَظنُّه والله قد نَجَا، فمَنْ هذا الرجل؟ قال: أَنَا! قلتُ: والله ما سَلِمْتَ وأنت منذ عشرون سنة تَنْسُبُ ببثينة! قال: إني لَفِي آخر يوم من أيام الدنيا، وأوَّلِ يوم من أيَّام الآخرة، فلا نالتْني شفاعةُ محمد إنْ كنتُ وضعتُ يَدِي عليها لرِيبَةٍ قطُّ. قال: فأقمنا حتَّى ماتَ.

وذاكرت بهذا بعض مشايخِنا، فقال لي: كيف يكون هذا؟ أليس هو القائل:

فدَنَوْتُ مُخْتَفِياً أُضِرُّ بِبَيْتِها

حتّى وَلَجْتُ على خَفِيِّ المَوْلَجِ

قالَتْ: وعَيْشِ أَخِي ونَقْمَةِ والدي

لأُنَبِّهنَّ الحَيَّ إنْ لم تَخْرُجِ

فخَرَجْتُ خيفَةَ أَهْلِها فَتَبَسَّمَتْ

فَعَلمْتُ أَنَّ يَمينَها لم تَلْجَجِ

فَلَثِمْتُ فاها آخذاً بقُرُونها

فعْلَ النَّزِيف ببَرْد ماءِ الحَشْرَجِ

وقال جميل حين حَضَرَتْه الوفاة:

بَكَرَ النَّعِيُّ وما كَنَى بِجَميلِ

وثَوَى بمصْرَ ثَوَاءَ غَيْرِ قُفُولِ

ولَقَدْ أَجُرُّ البُرْدَ في وادي القُرَى

نَشْوانَ بَيْنَ مَزَارِعٍ ونَخِيلِ

قُومِي بُثَيْنَةُ وانْدُبِي بعَوِيل

وابْكِي خَليلَك دُونَ كُلِّ خَليلِ

وكان تَوْبَةُ رحَلِ إلى الشأم، فمرَّ ببني عُذْرةَ، فرأَتْه بُثَينةُ، فجعلتْ تَنظر إليه، فشقَّ ذلك على جَميلٍ، وذلك قبل أن يُظْهَرَ على حُبّه لها، فقال له جميلٌ: مَن أنت؟ قال: أنا تَوْبَةُ بن الحُمَيِّر، قال: فهل لكَ في الصِّراع؟ قال: ذلك إليك. فنبذتْ إليه بُثينة مِلْحَفةً مُوَرَّسَةً، فاتَّزَر بها، ثم صارعه، فصرَعه جميل. ثم قال له: هل لك في النِّضَال؟ قال: نعم. فناضله، فنَضَلَه جميلٌ. ثم قال له: هل لك في السِّبَاق؟ قال: نعم. فسابقه، فسَبَقَه جميلٌ. فقال له توبة: يا هذا، إنَّك إنَّما تفعل هذا بريحِ هذه الجالسة، ولكن اهْبِطْ بنا إلى الوادي. فهَبَطَا إلى الوادي، فصَرعه توبةُ وسَبَقه ونَضَلَه.

الفرزدق ونوار

قال أبو عمرو بن العلاء: كان الفرزدق يُشَبَّه من شعراء الجاهلية بزُهَيْرٍ.

وأَمَّا النَّوار امرأَةُ الفرزدق فهي ابنة أَعْيَنَ بن ضُبَيعة المُجَاشِعي، وكان عليُّ بن أبي طالبٍ- - وجَّه أباها إلى البصرة أيام الحَكَمَين، فقتله الخوارج غِيلَةً، فخطب النَّوَارَ رجلٌ من قريش وأهلها بالشأم، فبعثتْ إلى الفرزدق تسأَله أن يكون وليَّها؛ إذْ كان ابنَ عمِّها، وكان أقرب مَن هناك إليها، فقال: إنَّ بالشأم مَن هو أقربُ إليكِ مني، ولا آمَن أن يَقْدَم قادمٌ منهم فينكرَ ذلك عليَّ، فأَشْهِدي أنك قد جعلتَ أمرَكَ إليَّ. ففعلتْ، فخرج بالشهود وقال لهم: قد أَشْهَدَتْكُم أَنَّها قد جعلتْ أمرها إليَّ، وإني أُشْهِدُكُمْ أني قد تَزوَّجتُها على مئة ناقةٍ حمراء سوداء الحَدَق.

فَذَئِرَتْ[18] من ذلك، واسْتَعْدَتْ عليه، وخرجتْ إلى عبد الله بن الزُّبير، والحجازُ والعراقُ يومئذٍ إليه، وخرج الفرزدق. فأمَّا النَّوارُ فنزلت على خَوْلة بنة مَنْظُور بن زَبَّانَ الفَزَاريّ؛ امرأة عبدالله بن الزبير، فرقَّقَتْها، وسأَلتْها الشفاعة لها. وأمّا الفرزدق فنزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير، وهو لخولة، ومدَحَه، فوعَده الشفاعة له، فتكلَّمتْ خولة في النَّوَار، وتكلَّم حمزة في الفرزدق، فأَنْجَحَتْ خولة، وخاب حمزة، وأَمرَ عبد الله بن الزبير أَلَّا يَقْرَبَها حتى يصيرا إلى البصرة، فيحتكمَا إلى عامله، فخرج الفرزدق، فقال:

أَمَّا بَنُوهُ فلم تُنْجِحْ شفاعتُهم

وشُفِّعَتْ بِنْتُ مَنْظُورِ بنِ زَبَّانَا

لَيْسَ الشَّفِيعُ الذي يأْتيكَ مُؤْتَزِراً

مِثْلَ الشَّفيعِ الذي يَأتيكَ عُرْيَانَا

وماتت النَّوَار بالبصرة مُطَلَّقة منه، وصلَّى عليها الحسن البصريُّ رحمه الله.

وأَنَشَد الفرزدق سليمانَ بن عبد الملك:

ثَلاثٌ واثْنَتانِ فهُنَّ خَمْسٌ

وسادسَةٌ تَميلُ إلى شِمَامِي

فبِتنَ جَنَابَتَيَّ مُطَرَّحاتٍ

وبتُّ أَفُضُّ أَغْلاقَ الخِتَامِ

كأَنَّ مَفالِقَ الرُّمانِ فيه

وجَمْرَ غَضًى قَعَدْنَ عليه حَامِ

فقال له سليمان: أَخْلَلْتَ بنفسك؛ أَقْرَرْتَ عليها عندي بالزِّنا، وأَنا إمامٌ، فلا بُدَّ لي من إقامة الحدِّ عليكَ! قال: ومن أين أوجبتَه عليَّ؟ قال: لقول الله عزّ وجلّ : (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مئةَ جَلْدَةٍ). قال الفرزدق: فإنَّ كتاب الله يَدْرَؤُه عني؛ يقول الله تبارك وتعالى: (وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ - أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ - وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ)، فأنا قلتُ ما لم أفعلْ.

كثيّر عزة

قال حماد الراوية: قال لي كُثيِّر: ألا أخبرُك عما دعاني إلى ترك الشِّعر؟ قلتُ: تَخبرني. قال: شَخَصْتُ أنا والأَحْوَص ونُصَيبٌ إلى عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- وكُلُّ واحد منَّا يُدِلُّ عليه بسابقةٍ له وإخاءٍ، ونحن لا نشكُّ أنه يُشْركنا في خلافته، فلما رُفعت لنا أعلامُ خُنَاصرَة[19]، لَقيَنَا مَسْلَمَة بن عبد الملك جائياً من عنده، وهو يومئذ فتى العرب، فسلَّمنا عليه فردَّ علينا السلام، ثم قال: أَمَا بلغَكم أَنَّ إمامكم لا يَقْبَلُ الشعر؟ قلنا: ما وَضَح لنا خبرٌ حتَّى انتهينا إليك. ووَجَمْنا وَجْمَةً عَرَفَ ذلك فينا، فقال: إن يَكُ ذو دينٍ بني مروانَ ولِيَ وخَشيتم حرْمانَه، فإنَّ ذا دنياها قد بقي، ولكم عندي ما تحبُّون، وما أَلْبَثُ حتى أرجع إليكم، فأمنحَكم ما أنتم أهلُه.

فلما قَدمَ كانتْ رحالُنا عنده، فأَكْرَمُ منزلٍ وأَفضلُ منزولٍ به، فأقمنا عنده أَربعة أشهر يَطلب لنا الإِذْنَ هو وغيرُه، فلم يُؤْذنْ لنا، إلى أن قلتُ في جُمْعَةٍ من تلك الجُمَع: لو أَني دنوتُ من عُمَرَ فسمعتُ كلامَه فتحفَّظْتُه؛ كان ذلك رأياً. ففعلتُ، فكان ما حفظت من قوله يومئذ: لكلِّ سفرٍ زادٌ لا مَحَالَة؛ فتزوَّدُوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التَّقْوى، وكُونوا كمَنْ عايَنَ ما أَعدَّ الله له من ثوابه وعقابه؛ فترغبوا وترهبوا، ولا يَطولَنَّ عليكم الأَمَدُ فتَقْسُوَ قُلوبُكم، وتَنقادوا لعدوِّكم. في كلام كثير. ثم قال: أعوذ بالله أن آمرَكم بما أَنهى عنه نفسي؛ فتَخْسرَ صَفْقَتي، وتظهرَ عَيْلَتي، وتَبْدُو مَسْكنتي، في يومٍ لا يَنفعُ فيه إلا الحقُّ والصدقُ. ثم بَكى حتَّى ظننَّا أنه قاضٍ نَحْبَهُ، وارتَجَّ المسجد وما حوله بالبكاء والعَويل، وانصرفتُ إلى صاحبيَّ، فقلتُ لهما: خُذا في شَرْجٍ من الشعر غيرِ ما كُنَّا نقولُه لعُمَرَ وآبائه؛ فإنَّ الرجل أخرويٌّ ليس بدنيويّ.

إلى أن استأذن لنا مَسْلَمَةُ في يوم جمعة، فأَذِنَ لنا بعدما أَذنَ للعامَّة، فلمّا دخلتُ عليه سلَّمتُ، ثم قلت: يا أمير المؤمنين، طال الثَّوَاءُ، وقلَّتِ الفائدة، وتحدَّثتْ بجَفَائِكَ إيّانا وفودُ العرب. فقال: يا كثيِّر، (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ)؛ أَفي واحدٍ من هؤلاء أنتَ؟ فقلت: ابن السبيل مُنْقَطَعٌ به، وأنا ضاحكٌ. قال: أوَ لستَ ضيفَ أبي سعيد؟ قلت: بلى. قال: ما أرى من كان ضيفَه مُنْقَطَعاً به.

ثم قلتُ: يا أمير المؤمنين، أَتأذن لي في الإنشاد؟ قال: نعم، ولا تَقُلْ إلا حقًّا. فأَنشدتُ:

تَكلَّمتَ بالحقِّ المُبينِ وإنَّما

تَبَيَّنُ آياتُ الهُدَى بالتكلُّمِ

وأظْهَرْتَ نُورَ الحقِّ فاشتدَّ نُورهُ

على كل لَبْسٍ بارقِ الحقِّ مُظْلِمِ

وعاقبتَ فيما قد تقَدَّمتَ قبلَه

وأعرضتَ عمّا كان قبلَ التقدُّمِ

وليِتَ فلم تَشْتَمْ عَليًّا ولم تَخفْ

بَرِيًّا، ولم تَقْبَلْ إشارَةَ مُجْرِمِ

وصَدَّقْتَ بالفعْلِ المَقَالَ مع الذي

أَتَيْتَ، فأَمْسَى راضياً كُلُّ مُسْلمِ

أَلَا إِنَّما يَكْفي الفَتَى بَعْدَ زَيْغِهِ

منَ الأَوَد البادي ثِقَافُ المُقَوِّمِ

ودخل كثيِّر على عبد الملك بن مروان، فقال له: نَشَدْتُكَ بحقِّ علي بن أبي طالب؛ هل رأيتَ قطُّ أحداً أعْشقَ منك؟ قال: يا أمير المؤمنين، لو نَشَدْتَني بحقِّك أخبرتُك. فقال: نشدتك بحقِّي إلّا أخبرتَني؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، بينا أنا أسيرُ في بعض الفَلَوات، فإذا أنا برجلٍ قد نَصَبَ حبالَةً، فقلت له: ما أجلسك هاهنا؟ قال: أهلكني وأهلي الجوعُ، فنصبتُ حِبالَتي هذه؛ لأُصيبَ لهم ولنفسي ما يكفينَا ويَعْصِمُنَا يومنا هذا. قلتُ: أرأيتَ إنْ أقمتُ معك فأَصَبْتَ صيداً، أتجعلُ لي منه جزءاً؟ قال: نعم. فبينَا نحن كذلك وقعتْ فيها ظبيةٌ، فخرجنا نَبْتَدِرُ، فبَدَرني إليها، فحلَّها وأطلقَها، فقلتُ: ما حملَك على هذا؟ قال: دخلتني لها رقَّةٌ لشبهها بلَيْلَى! وأنشأ يقول:

أَيَا شبْهَ لَيْلَى لا تُراعِي فإنَّني

لَك اليَوْمَ من وَحْشِيَّةٍ لَصَديقُ

أَقُولُ وقَدْ أَطْلَقْتُها من وثاقها:

فأَنْت للَيْلَى إنْ شَكَرْتِ عَتيقُ

وقال ابن الكَلْبيّ وابن دَأبٍ: لمَّا حَلَّها قال:

اذْهَبي في كِلَاءَة الرَّحْمنِ

أَنْت مني في ذمَّةٍ وأَمَانِ

لا تَخافِي بأَنْ تُهَاجِي بسَوْءٍ

ما تَغَنَّى الحَمَامُ في الأَغصانِ

تَرهَبيني والجِيدُ منْك لليْلى

والحَشَا والبُغامُ والعَيْنانِ

ودخلتْ عَزَّةُ على أُمّ البَنين، فقالت لها أَمُّ البنين: أرأيت قول كثيِّرٍ:

قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوَفَّى غَرِيمَهُ

وعَزَّةُ مَمْطُولٌ مُعَنًّى غَرِيمُهَا

ما كان ذلك الدَّيْنُ؟ قالت: وعدتُه بقُبْلة فتحرَّجت منها. فقالت أمّ البنين: أَنْجِزِيها وعليَّ إِثْمُها.

قال السائب رَاوِيةُ كُثيِّر: خرجت مع كُثيِّر وهو يريد عبد العزيز بن مروان، فمررنا بالماء الذي عليه عَزَّةُ، فسلَّمنا جميعاً على أهل الخِبَاء، فقالت عزَّةُ: عليك يا سائب السلام. ثم أقبلت على كُثيِّر، فقالت: ألا تتَّقي الله؟! أرأيتَ قولك:

بآيَةِ ما أَتَيْتُك أُمَّ عَمْرٍو

فقُمْت بحاجتي والبيتُ خالِي

ويحكَ! خلوتُ معك في بيتٍ قطُّ؟! فقال: لم أَقُلْه، ولكنّي الذي يقول:

فأُقْسمُ لَوْ أَتَيْتُ البَحْرَ يوماً

لأَشْرَبَ ما سَقَتْني من بِلَالِ

وأُقْسمُ أَنَّ حُبَّكِ أُمَّ عَمْرٍو

لَدَى جَنْبِي ومُنْقَطَعِ السُّعالِ

قالت: أمّا هذا فعسَى! قال السائب: فأتينا عبد العزيز بن مروان، فانصرفْنا ومررنا بهم، فقال كُثيّر: السلام عليك يا عزَّة. فقالت: عليك السلام يا جَمَلُ! فقال كُثيّر:

حَيَّتْكَ عَزَّةُ بَعْدَ الوَصْلِ وانْصَرَفَتْ

فَحَيِّ وَيْحَكَ مَنْ حَيَّاك يَا جَمَلُ

لو كُنْتَ حَيَّيْتَها ما زِلْتَ ذَا مِقَةٍ

عِنْدِي وما مَسَّكَ الإِدْلاجُ والعَمَل

لَيْتَ التَّحيَّةَ كانَتْ لي فأَجْعَلَها

مكانَ (يا جَمَلاً) حُيِّيتَ يا رَجُلُ

وخرج كُثيّر إلى مصْرَ وعزَّةُ بالمدينة، فاشتاق إليها، فقام إلى بغلةٍ له فأسرجها، وتوجَّه نحو المدينة لم يعلم به أحدٌ، فبينا هو يسير في التِّيه بمكانٍ يقال له: فيفاء خُرَيم، إذا هو بِعِيرٍ قد أقبلتْ من ناحية المدينة، في أوائلها محاملُ فيها نسوةٌ، وكُثيِّرٌ مُتَلَثِّمٌ بعمامةٍ له، وفي النسوة عزَّةٌ، فلمَّا نظرتْ إليه عرفَتْه وأنكرها، فقالت لقائد القافلة: إذا دنَا منك الراكب فاحْبِسْ. فلمّا دنا كُثيٌّر حَبَس القائد القافَلة، فابتدرته عزّة، فقالت: مَنِ الرجل؟ قال: منَ الناس. قالتْ: أَقسمتُ. قال: كُثيٌّر. قالتْ: فأين تريدُ في هذه المفازة؟ قال: ذكرتُ عزّة وأنا بمصرَ، فلم أصبر أن خرجتُ نحوَها على الحال التي ترينَ. قالت: فلو أنَّ عزّة لَقيَتْك فأمرتك بالبُكاءِ، أكنتَ تبكي؟ قال: نعم. فنزعتْ عزَّة اللثام عن وجهها، وقالت: أنا عزّة، فإن كنتَ صادقاً فافعلْ ما قلتَ! فأُفْحمَ، فقالت للقائد: قُدْ قافلتك، فقادها. وبقي كُثيّر مكانه لا يُحير ولا يَنْطقُ، حتّى تَوارتْ، فلمّا فقدها سالتْ دموعُه، وأنشأ يقول:

وقَضَّيْنَ ما قَضَّيْنَ ثُم تَرَكْنَني

بفَيْفَا خُرَيمٍ قائماً أَتَلَدَّدُ

وعادت عزّة إلى مصر، وخرج كُثيٌّر يريد مصر، فوافاها والناس ينصرفون عن جِنَازتها.

يقول كُثيّر:

كأَني أُنادي صَخْرَةً حينَ أَعْرَضَتْ

منَ الصُّمِّ لَوْ تَمْشي بها العِيسُ زَلَّتِ

صَفُوحاً فما تَلْقَاكَ إلا بَخِيلَةً

فمَنْ مَلَّ منها ذلكَ الوَصْلَ مَلَّتِ

أَباحَتْ حِمًى لم يَرْعَهُ النَّاسُ قَبْلَها

وحَلَّتْ تِلَاعاً لم تَكُنْ قَبْلُ حُلَّتِ

أرِيدُ الثوَاءَ عِنْدَها وأظنّها

إِذَا ما أَطَلْنا عنْدَهَا المُكْثَ مَلَّتِ

يُكَلِّفُها الغَيْرَانُ شَتْمي، وما بها

هَوَانِي، ولكنْ للمَليك اسْتَذَلَّتِ

هَنيئاً مَرِيئاً غَيْرَ داءٍ مُخامِرٍ

لعَزَّةَ من أَعْراضنا ما اسْتَحَلَّتِ

فإِنْ تَكُنِ العُتْبى فأَهْلاً ومَرْحَباً

وحَقَّتْ لها العُتْبَى لَدَيْنا وقَلَّتِ

وإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى فإِنَّ وَرَاءَنا

مَناوِيحَ لو سارَتْ بها الرِّئْمُ كَلَّتِ

أَسيئي بنا أَو أَحْسنِي لا مَلُومَةً

لَدَيْنا، ولا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ

ووالله ما قارَبْتُ إِلَّا تَبَاعَدَتْ

بِصُرْمٍ، ولا استَكْثَرْتُ إِلَّا أَقَلَّتِ

ووالله ثُمَّ الله ما حَلَّ قَبْلَها

ولا بَعْدَها من خُلَّةٍ حَيْثُ حَلَّتِ

عمر بن أبي ربيعة والثُّريّا

حجَّ عبد الملك بن مروان، فلقيه عمر بن أبي ربيعة بالمدينة، فقال له عبد الملك: يافاسق! قال: بئسَتْ تحيَّةُ ابنِ العم على طول الشَّحَط[20]! قال: يا فاسق، أَمَا إِنَّ قُريشاً لتَعلم أَنَّك أَطولُها صَبْوةً، وأبطؤُها تَوْبَةً، أَلَسْتَ القائل:

ولَوْلا أن تُعَنِّفَني قُرَيْشٌ

مَقَالَ الناصحِ الأَدْنَى الشَّفيقِ

لَقُلْتُ إِذا الْتَقَيْنا: قَبِّلِينِي

ولَوْ كُنَّا على ظَهْرِ الطَّريقِ

وكان أخوه الحارث خَيِّراً عفيفاً، فعاتَبه يوماً من الأيّام، قال عمر: وكنتُ يومئذٍ على ميعاد من الثُّرَيَّا، قال: فَرُحْتُ إلى المسجد مع المغرب، وجاءَت الثريا للميعاد، فتَجِدُ الحارث مستلقياً على فراشه، فألقتْ بنفسها عليه وهي لا تَشُكُّ أَني هو! فوثَبَ وقال: مَن أَنتِ؟ فقيل له: الثريا. فقال: ما أَرى عمر انتفع بعِظَتِنَا! قال: وجئتُ للميعاد ولا أعلم بما كان، فأقبل عليَّ وقال: ويلك! كِدْنا والله نُفْتَنُ بعدَك، لا والله إِنْ شَعَرْتُ إلا والثّريّا صاحبتك واقعة عليَّ. فقلت: لا تمسك النار بعدها أبداً!

فلمّا تزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوفٍ، قال:

أَيُّها المُنْكِحُ الثُّريّا سُهَيْلاً

عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَجْتَمعانِ؟!

قيس ليلى

وخرج رجلٌ من بني مُرَّة إلى ناحية الشأمِ والحجاز، ممّا يلي تَيْماءَ والسَّرَاة بأَرض نجد، في بُغْيةٍ له، فإذا هو بخيمة قد رُفعت له عظيمة- وقد أصابه المطر- فعَدل إليها، فتنحنح، فإذا امرأة قد كلَّمتْه، فقالت: انزلْ. قال: فنزلتُ، وراحتْ إبلُهم وغنمُهم، فإذا أَمرٌ عظيمٌ كثرةً ورُعاةً، فقالت: سَلُوا هذا الرجل من أين أقبل؟ فقلت: من ناحية تِهَامة ونجد. فقالت: يا عبد الله، أيّ بلاد نجدٍ وطِئْتَ؟ فقلتُ: كلها. قالت: بمَن نزلتَ هناك؟ فقلت: ببني عامر. فتنفَّستِ الصُّعَدَاء، ثم قالت: بأيِ بني عامر؟ فقلت: ببني الحَريش. فاستعبرتْ، ثم قالت: هل سمعت بذكر فتًى منهم يقال له: قيسٌ، يلقَّبُ بالمجنون؟ فقلت: إي والله، نزلت بأبيه، وأتيتُه ونظرت إليه. قالت: فما حالُه؟ قلتُ: يَهيم في تلك الفيافي، ويكون مع الوحش لا يعقل ولا يفهم، إلا أن تُذكر له ليلى، فيبكي وينشد أشعاراً يقولها فيها.

قال: فرفعتِ الستر بيني وبينها، فإذا شُقَّةُ قمرٍ لم تَرَ عيني مثلَها قطُّ، فبكتْ وانتحبتْ، حتى ظننتُ- واللهِ- أن قلبها قد انصدع، فقلت: أيَّتُها المرأةُ، أما تتَّقين الله؟ فوالله ما قلتُ بأساً! فمكثتْ طويلاً على تلك الحال من البكاء والنحيب، ثم قالت:

بِنَفْسِيَ مَنْ لا يَسْتَقِلُّ برَحْلِهِ

ومَنْ هُوَ إِنْ لم يَحْفَظِ اللهُ ضائعُ

ثم بكت حتى غُشي عليها، فلما أفاقت قلتُ: ومَن أنتِ يا أَمَةَ الله؟ قالت: أنا لَيْلى المشؤومة عليه، غيرُ المؤاسية له! فما رأيتُ مثل حزنها عليه وجزعها، ولا مثلَ وَجْدِها.

وكان أبو المجنون ورهطُهُ أَتَوْا أبا ليلى وأَهلَها، وسأَلوهم بالرَّحِم، وعَطَفوا عليهم، وأخبروهم بما ابتُلي به، فأبَى أبو ليلى، وحلف ألا يزوّجها إيّاه أبداً. فقال الناس لأبي المجنون: لو خرجتَ به إلى مكة، فعاذ بالبيت ودعا الله، رجونا أن ينساها، أو يعافيَه الله مما ابتلي به. فحَجَّ، فبينما هو يمشي بمنًى وأبوه معه قد أخذ بيده يريد الجِمَار، نادى منادٍ من تلك الخيام: يا ليلى! فخرَّ مغشيًّا عليه، واجتمع عليه الناس وضجُّوا، ونضَحوا عليه من الماء، وأبوه يبكي عند رأسه، ثم أفاق وهو مصفرّ لونُه، متغيِّرٌ حالُه، فأنشأ يقول:

وداعٍ دَعَا إِذْ نحنُ بالخَيْفِ من مِنًى

فهَيَّجَ أَحْزَانَ الفُؤَادِ وما يَدْرِي

دَعَا باسْمِ ليْلى غَيْرِها فكأنّما

أَطارَ بلَيْلى طائِراً كان في صَدْرِي

وخرج شيخٌ من بني مُرَّة إلى أرض بني عامر ليلقى المجنون، قال: فدُللتُ على خيمةٍ فأَتيتُها، فإذا أبوه شيخ كبير، وإخوة له رجالٌ، وإذا نِعَمٌ ظاهرةٌ وخيرٌ كثير، فسألتُهم عن المجنون، فاستعبروا جميعاً وبكَوْا، قال الشيخ: واللهِ لَهُوَ كان آثرَ هؤلاءِ عندي، وإنَّه عشق امرأةً من قومه، واللهِ ما كانتْ تطمع في مثله، فلما أن فشا أمرُه وأمرُها، كره أبوها أن يزوّجه إيَّاها بعد ظهور الخبر، فزوجها من رجلٍ آخر، فجُنَّ ابني وجداً عليها وصبابةً بها، فحبسناه وقيَّدناه، فكان يَعَضُّ لسانه وشفتيه، حتى خشينا أن يقطعهما، فلما رأينا ذلك خلينا سبيله، فهو في هذه الفيافي مع الوحش، يُذهَبُ في كلِّ يوم بطعامه فيُوضع له حيث يراه، فإذا تنحَّوا عنه جاء فأكل، وإذا أخلقتْ ثيابُه أتوه بثياب فيُلْقُونها حيثُ يراها، ويتنحَّون عنه، فإذا رآها أتاها، فألقى ما عليه ثم لبسها.

قال: فسأَلتُهم أَن يدلُّوني عليه لآتيَه، فدَلُّوني على فتًى من الحيّ، وقالوا: لم يزلْ صديقَه، وليس يأْنس بأحدٍ إلا به، فهو يأْخذ أشعاره فيأتينا بها. فأتيتُه، فسألتُه أن يدلني على ما أحتالُ به للدنوّ منه، فقال: إن كنتَ تريد شِعرَه فكلُّ شِعرٍ قاله إلى أمسِ فهو عندي، وأنا أذهب غداً، فإذا كان قال شيئاً أتيتُك به. قال: فقلت له: لا، بل تدلّني عليه فآتيَه. فقال: إن نَفَر منكَ تخوَّفتُ أن يَنْفِر مني؛ فيذهب شعره! قال: فأبيتُ إلّا أن يدلَّني عليه، فقال: نعم، اطلبْه في هذه الصحاري، فإذا رأيته فادنُ منه مستأْنساً، ولا تُظهر النِّفَار منه؛ فإنَّه يتهدَّدك ويتوعَّدك، وبالحَرَى[21] أن يرميَك بشيءٍ إن كان بيده، واجلسْ كأَنَّك لا تنظرُ إليه، والحظْه ببصرك، فإذا رأيتَه قد سكَن أو عَبِثَ بيده، فأنشِدْه شعراً إن كنت تَرْوِي لقيسِ بن ذَريح شيئاً؛ فإنَّه يُعْجَب به.

قال: فخرجت أَدورُ يومي، فما رأَيتُه إلا بعد العصر جالساً على قَوْز من رمل[22]، قد خطَّ بإصبعه فيه خطوطاً، فدنوتُ منه غير منقبضٍ منه، فنفَر واللهِ مني كما تَنْفِر الوحشُ إذا نظرتْ إلى الإنس، وإلى جانبه أحجارٌ مُلَمْلَمةٌ، فتناول واحداً منها، فأقبلتُ حتى جلستُ إليه، ومكث ساعةً وكأنَّه الشيء النافرُ المتهيِّئُ للقيام، فلما طال جلوسي سكنَ، وأقبل يعبَثُ بأصابعه، فنظرتُ إليه، فقلت: أحسنَ واللهِ قيْس بن ذريحٍ حيث يقول:

وقالوا: غَداً أَو بَعْدَ ذاكَ بلَيْلَةٍ

فِراقُ حَبِيبٍ لم يَبِنْ وهْوَ بائِنُ

وما كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي

بكَفَّيَّ إلَّا أَنَّ مَنْ حانَ حائِنُ

فبكى طويلاً، ثم قال: أنا واللهِ أشعرُ منه حيث أقول:

وأَدْنَيْتِنِي حتَّى إذا ما سَبَيْتِني

بقَوْلٍ يُحِلُّ العُصْمَ سَهْلَ الأَباطِحِ

تَجافَيْتِ عَنِّي حِينَ لا لِيَ حِيلَةٌ

وخَلَّيْتِ ما خَلَّيْتِ بَيْنَ الجَوانحِ

ثم عنَّت له ظِباءٌ فوثَب في طلبها، فانصرفت، ثم عُدت من الغد فلم أُصِبْه، فرجعت فأخبرتُهم، فوجَّهوا الذي كان يذهب بطعامه، فأخبرهم أَنَّه على حاله لم يأكل منه شيئاً، ثم عدت اليوم الثالث فلم أصبه، ونظرتُ إلى طعامه فإذا هو على حاله، ثم غدوتُ بعد ذلك، وغدا إخوتُه وأهلُ بيته، فطلبناه يومَنا وليلتَنا، فما أصبناه، فلمّا أصبحنا أشرفنا على وادٍ كثير الحجارة، فإذَا هو ميِّتٌ بينها، فاحتملوه ودفنوه.

وللمجنون عَقِبٌ بنجدٍ. ولم يقل أَحدٌ من الشعراء في معنى قوله: «وأَدْنَيْتِني حَتَّى إذا ما سَبَيْتِني». شيئاً هو أحسن منه، ونحوه قول ابن الأحنف:

أَشْكُو الَّذِينَ أَذَاقُوني مَحَبَّتَهُمْ

حتَّى إذا أَيْقَظُوني بالهَوَى رَقَدُوا

ومن جيّد شعره، ويقال: إنه منحول:

فإذا وجَدتَ لها وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ

شَفَعَ الضَّمِيرُ إلى الفُؤَادِ فسَلَّها

بَيْضاءُ باكَرَها النَّعيمُ فصاغَها

بلَبَاقَةٍ فأَدَقَّها وأَجَلَّها

إنِّي لأَكْتُمُ في الحَشَا من حُبِّها

وَجْداً لَوَ اصْبَحَ فَوْقَهَا لأَظَلَّها

ويَبِيتُ تَحْتَ جَوانِحي حُبٌّ لها

لو كان تَحْتَ فِراشِها لأَقَلَّها

ضَنَّتْ بنائِلِها فقُلْت لِصاحِبِي:

ما كان أَكْثَرَها لَنَا وأَقَلَّها!

عروة بن حزام وعفراء

عروة بن حزام هو من عُذْرَة، وهو أحد العُشَّاق الذين قتلَهم العشق، وصاحبته عَفْراءُ بنت مالك العُذْريَّة، وكان عروة يتيماً في حجْر عمِّه، حتَّى بلغ، فعَلِقَ عفراءَ عَلاقَةَ الصِّبَا، وكانا نَشَأَا معاً، فسأل عمَّه أن يزوّجه إيّاها، فكان يُسوِّفُه، إلى أنِ خرج في عِيرٍ لأَهله إلى الشأمِ، وخطب عفراءَ ابنُ عمٍّ لها من البَلْقَاءِ، فتزوَّجها، فحملها إلى بلده، وأقبل عروة في عِيرِه راجعاً، حتَّى إذا كان بتَبُوك، نظر إلى رُفْقَةٍ مُقْبِلةٍ من ناحية المدينة، فيها امرأةٌ على جملٍ أحمرَ، فقال لأصحابه: والله لكأنَّها شمائلُ عَفْرَاء. فقالوا: ويحك! ما تترك ذكر عفراء على حالٍ من الحال؟! فلم يُرَعْ إِلَّا بمعرفتها، فبِئسَ قائماً[23] لا يُحير جواباً، حتَّى نَفَذَ القوم، فذلك قوله:

وإنِّي لَتعْرونِي لِذِكْرَاكِ رَوْعَةٌ

لَهَا بَيْنَ جِلْدِي والعِظام دَبِيبُ

وما هو إِلَّا أَن أَراها فُجاءَةً

فأبْهَتُ حَتّى ما أكادُ أجِيبُ

وأُصْرَفُ عن رَأيِي الّذي كُنْتُ أَرْتَئِي

وأَنْسَى الَّذِي أَعْدَدْتُ حِينَ تَغِيبُ

ويُظْهِرُ قَلْبي عُذْرَها ويُعِينُها

عَليَّ، فما لي في الفُؤَادِ نَصِيبُ

وقد عَلِمَتْ نَفْسِي مَكانَ شِفَائِها

قَريباً، وهَلْ ما لا يُنَالُ قَريبُ؟

لَئِنْ كان بَرْدُ الماءِ أَبْيَضَ صافِياً

إلِيَّ حَبِيباً، إنَّها لَحَبِيبُ

ثم انصرف إلى أهله باكياً محزوناً، فأخذه الهُزال، حتَّى لم يَبْقَ منه شيءٌ. وقال قوم: هو مسحورٌ. وقال قومٌ: به جِنَّةٌ. وقالوا: باليمامة طبيبٌ يقال له: سالمٌ، له تابعٌ من الجنّ، وهو أطبّ الناس، فساروا إليه من أرض بني عُذْرَة حتَّى جاؤوه، فجعل يَسْقِيه ويرقيه، فقال: يا هَنَاهْ! هل عندك من الحُبّ رُقْيَةٌ؟ قال: لا والله! فانصرَفُوا، فمرُّوا بطبيبٍ بحَجْرٍ[24]، فعالجه وصَنَع به مثلَ ذلك، فقال عروة: إنَّه واللهِ ما دوائي إلا شخصٌ بالبَلْقاء، فانصرفوا به. وفي ذلك يقول:

جَعَلْتُ لعَرَّافِ اليَمامَةِ حُكْمَهُ

وعَرَّافِ حَجْرٍ إنِ هُما شَفَيَانِي

فما تَرَكَا من رُقْيَةٍ يَعْلَمَانها

ولا سَلْوَةٍ إلَّا بها سَقَيَانِي

فقالا: شَفَاك اللهُ، واللهِ ما لَنَا

بما حُمِّلَتْ مِنْكَ الضُّلُوعُ يَدَانِ

وفيها يقول:

ألا يا غُرَابَيْ دِمْنَةِ الدارِ خَبِّرَا

أَبِالْبَيْنِ من عَفْرَاءَ تَنْتَحِبَانِ؟

فإِنْ كان حقًّا ما تقُولانِ فانْهَضَا

بلَحْمِي إلى وَكْرَيْكُمَا فكُلَانِي

وعرَّاف اليمامة: هو رِيَاح أَبو كَلْحَبَة، مولى بني الأَعرج بن كعب بن سعد بن زيد مَنَاةَ بن تميم، واسم الأعرج الحارث، ولعرّاف اليمامة عقبٌ باليمامة كثير.

وقال عروة أيضاً:

فما بِيَ من سقْمٍ ولا طَيْفُ جِنَّةٍ

ولكِنَّ عَبْدَ الأَعْرَجِيِّ كَذُوبُ

فرُدَّ إلى أَهله، فمرَّضوه دهراً، فقال لهنَّ يوماً: أَعَلِمْتُنَّ أَني لو نظرتُ إلى عَفْرَاءَ يوماً ذهب وَجَعي؟ فخرجوا به حتَّى نزلوا البَلْقاء مسْتَخْفِين، فكان لا يزال يُلِمُّ بعفراءَ وينظر إليها، وكانت عند رجلٍ كثيرِ المال، فبينا عروة يوماً بسوق البلقاء، لقيَه رجلٌ يعرفه من بني عُذْرَة، فسأله متى قَدِمَ؟ فأخبره، فقال: لقد عهدتُك مريضاً، وأراك قد صححْتَ. ثم سار إلى زوجها، فقال: متى قَدِم عليكم هذا الكلب الذي قد فضَحَكم في الناس؟ فقال زوج عفراء: أيُّ كلبٍ؟ قال: عروة. قال: أوَ قَدْ قَدِم؟ قال: نعم. قال: أنت أولى بأن تكون كلباً منه! ما علمتُ بمَقْدَمِه، ولو كنتُ علمتُ لضمَمْتُه إلى منزلي.

فلمّا أَصبحَ غدا يستدلُّ عليهم حتَّى جاءَهم، فقال لهم: قَدِمتُم ولم تَرَوْا أن تُعلموني؛ فيكونَ منزلُكم عندِي؟! ثم حلَف لا يكون نزولُهم إلا عليه، قالوا: نعم، نتحوَّل إليك الليلة أو غداً. فلمّا ولّى قال عروة لأَهله: قد كان من الأمر ما تَرَوْنَ، فالحَقْنَ بقومكن؛ فإنّه لا بأس علي. فارتحلوا، فَنُكِسَ، فلم يزل مُدْنَفاً حتى نزل بوادي القرى.

وكان عروة حين أُخرجت عَفْرَاءُ يُلْصِق بطنَه بحياض النَّعَمِ؛ يريدُ بَرْدَها، فيقال له: مهلاً، لا تقتلْ نفسك، ألا تتَّقي الله؟! فيقول:

بِيَ اليَأْسُ أَو داءُ الهُيَامِ شَرِبْتُه

فإِيَّاكَ عَنِّي لا يَكُنْ بِكَ ما بِيَا

مجنون لُبْنَى (قَيْس بن ذَرِيح)

هو من بني كِنَانَة، من بني لَيْث، وهو أَحد عشَّاق العرب المشهورين بذلك، وصاحبته لُبْنَى، وفيها يقول:

لَعَمْرُ الَّذي يُمْسي وأَنْتِ ضَجِيعُه

منَ النَّاسِ ما اخْتِيرَتْ عَلَيْهِ المَضاجعُ

وفيها يقول أيضاً:

وكُنَّا جَمِيعاً قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ الهَوَى

بِأَحْسَنِ حالَيْ غِبْطَةٍ وسرورِ

فما برحَ الواشُون حتَّى بَدَتْ لنا

بُطُونُ الهَوَى مَقْلُوبَةً لظُهُورِ

وكانت لُبْنَى تحته، فطلَّقها، ثم تتبَّعتْها نفسه، واشتدَّ وجدُه بها، وجعل يُلِمَّ بمنزلها سرًّا من قومه، فزوَّجها أبوها رجلاً من غَطَفان. وعاود قيسٌ زيارتَه إيَّاها، وشخص أبوها إلى معاوية، فأخبره بتعرُّضه لها، فكتب له معاوية بِهَدْر دمه إن عاد، ففي ذلك يقول:

فإِنْ يَحْجُبوها أَو يَحُلْ دونَ وَصْلِها

مقالةُ واشٍ أَو وعِيدُ أَمِيرِ

فلنْ يَمْنَعُوا عَيْنَيَّ من دائِمِ البُكَا

ولَنْ يُذْهِبوا ما قد أَجَنَّ ضَمِيرِي

إِلى الله أَشْكُو ما أُكِنُّ منَ الهَوَى

ومن حُرَقٍ تَعْتَادُني وزَفِيرِ

لقَدْ كُنْتِ حَسْبَ النَّفْسِ لو دام وَصْلُن

ولكِنَّمَا الدُّنْيا مَتَاعُ غُرورِ

أبو كبير الهذلي وأم تأبّط شرًّا

وقومٌ من الرُّواة يَنْحلون الشعرَ تأَبَّطَ شَرًّا، ويذكرون أَنَّه كان يتبع امرأَةً من فَهْم، وكان لها ابنٌ من هُذَيل، وكان يعاشرها. فلمّا قارب الغلامِ الحُلْمَ قال لها: مَن هذا الرجل الداخل عَليكِ؟ قالت: صاحبٌ كان لأبيك! قال: والله لئن رأَيتُه عندكِ لأقتلنَّك. فلمَّا رجع إليها تأبط شرًّا أخبرتْه الخبر، وقالت: إنَّ هذا الغلام مفرِّقٌ بيني وبينك، فاقتلْه! قال: سأفعل ذلك. فمرَّ به وهو يلعب مع الصبيان، فقال له: هلمَّ أَهَبْ لك نَبْلاً. فمضى معه، فتذمَّم من قتله، ووهب له نَبْلاً، فلمَّا رجع تأَبَّط شراً أَخبرها، فقالت: إنه والله شيطان من الشياطين، والله ما رأَيتُه قط مستثْقِلاً نوماً، ولا ممتلئاً ضحكاً، ولا هَمَّ بشيءٍ منذ كان صغيراً إلا فعله، ولقد حملتُه فما رأيتُ عليه دماً حتَّى وضعتُه، ولقد وقع عليَّ أبوه وإنِّي لمتوسّدة سرجاً في ليلةِ هَرَبٍ، وإنَّ نطاقي لمشدود، وإنَّ على أبيه لَدِرْعاً، فاقتلْه؛ فأَنت والله أَحبُّ إليَّ منه! فقال لها: سأغزو به فأقتلَه. فمرَّ، فقال له: هل لك في الغَزْو؟ قال: نعم. فخرج معه غازياً، فلم يجد له غِرَّةً، حتَّى مرَّ في بعض الليالي بنار لابْنَيْ قِتَرَةَ الفزَاريَّيْن، وكانا في نُجْعَةٍ، فلمَّا رأَى تأَبَّط النارَ عرف أَهلَها، فأَكبَّ على رجله وصاح: نُهِشْتُ نُهِشْتُ! النارَ! النارَ! فخرج الغلام يهوِي نحو النار،

فصادف عندها الرجلين، فواثباه، فقتلهما جميعاً، ثم أخذ جَذْوَةً من النار، واطرَدَ إبل القوم وأقبل نحوه، فلمَّا رأى تأبَّط النارَ تهوي نحوه ظنَّ أن الغلام قد قُتل، وأنَّ القوم اتَّبعوا أثَرَه، فمضى يسعى.

قال: فما نَشِبْتُ أن أَدركني ومعه جذوةٌ من النار، وهو يطَّرد إبل القوم، فقال: ويلك! قد أتعبتَني منذُ الليلة، ثم رمى بالرأسين، فقلت: ما هذا؟ قال: كلبان نازعاني على النار فقتلتُهما! قال: قلتُ: إنِّي والله ظننتُ أنَّك قد قُتلت. قال: بل قتلتُ الرجلين، عاديتُ بينهما. فقلت له: الهَرَب الآن؛ فالطَّلَبُ واَللهِ في أثَرك. ثم أخذتُ به على غير الطريق، فما سِرْنا إلا قليلاً حتى قال: أخطأتَ والله الطريق، وما تستقيمُ الريحُ فيه. ثم نظر، فما لبث أن استقبلَ الطريقَ، وما كان والله سَلَكها قطُّ.

قال: وسرنا إلى الصباح، فقلت له: انزل، فقد أَمِنْتَ. فأَنَخْنا الإبل، ثم انتبذ فنام في طرفها، ونمتُ في طرفها الآخر، ورمقتُه، حتى إذا أَدَّى إليَّ نَفَسَه، وانحطَّ طرفاه نوماً، فنمتُ رُويداً، فإذا هو قد استوى قائماً! فقال: شأنُك؟ فقلتُ: سمعت حِسَّاً في الإبل، فطاف معي بينها، فقال: والله ما أرى شيئاً؛ فنَمْ. فنمت، فنام، وقلت: عَجِلْتُ قبل أن يستثقل، فأَمهلتُه، حتى إذا تَمَلأ نوماً قمتُ رويداً، فإذا هو قد استوى قائماً! وقال: ما شأْنُكَ؟ قلتُ: سمعت حِسَّا، فطفتُ وطاف معي، ثم قال: أتخاف شيئاً؟ قلتُ: لا. قال: فنَمْ ولا تَعُدْ؛ فإنِّي قد ارتبتُ منك! فأَمهلتُه، حتى إذا استثقل قذفتُ بحصاةٍ إلى رأسه، فوثب، وتناومتُ، فأقبل نحوي فركضني برجله، وقال: أنائمٌ أنت؟ قلت: نعم. قال: أَسَمِعتَ ما سمعتُ؟ قلتُ: وما الذي سمعت؟ قال: إنِّي سمعتُ عند رأسي مثل بَرْكَة الجَزُور! قلت: فذلك الذي أحذر! فطاف بالإبل، فطفت معه فلم نَرَ شيئاً، فأقبل عليَّ مُغْضَباً تتوقَّد عيناه، فقال لي: قد علمت ما تصنع منذ الليلة، والله لئن عدتَ ليموتَنَّ أحدُنا. ثم أَمَّ مضجَعه.

قال: فوالله لبثُّ أَكلؤُه مخافةَ أن يوقظه شيءٌ فيقتلَني، وتأَمَّلتُه مضطجعاً، فإذا هو على حرفٍ، ما إن يَمَسُّ الأَرْضَ إلا منكبُه وحرفُ ساقه، وسائرُهُ ناشزٌ منه، فلما استيقظ قال: ألا ننحر جزوراً فنأْكلَ؟ قلت: بلى. فنحرنا جزوراً، فاشْتَوَى، ثم حلب ناقةً فشرب، ثم خرج يريد المَذهب، وَأَبْعَدَ فاتَّبعتُ أثره، فأَجِدُه مضطجعاً على مَذْهَبه، وإذا يده داخلةٌ في جُحْرٍ، وإذا رجله منتفخةٌ، فأنتزِعُ يده من الجُحْرِ، فإذا هو قابض على رأس أسود وقد قتله، وإذا هما ميَّتان جميعاً. ففي ذلك يقول أبو كبير، ويقال: تأبَّط شرًّا:

ولقَدْ سَرَيْتُ عَلى الظَّلامِ بِمِغْشمٍ

جَلْدٍ منَ الفِتْيَانِ غَيْرِ مُهَبَّلِ



1. الأنضاء: المهزولة. ↑

2. نازلة العمد: هم أصحاب الأبنية الرفيعة الذين يتنقلون بأبنيتهم. ونحو ذلك فسّر الفراء قوله تعالى: (إِرَمَ ذَاتِ العِمَاد)؛ أنهم كانوا أهل عمد ينتقلون إلى الكلأ حيث كان، ثم يرجعون إلى منازلهم. ↑

3. الحَنْوة: نباتٌ سهليٌّ طيّب الريح، وقال أبو حنيفة: الحنوة الريحانة. والعَرارة: نبت طيب الريح أيضاً، وهو النرجس البري. ↑

4. طَبِن له: فَطِن. ↑

5. السُّناط: الذي لا لحية له. ↑

6. مريت الفرس: إذا استخرجت ما عنده من الجري بسوط أو غيره. ↑

7. لقاح أي: لم يدينوا للملوك ولم يُملكوا، ولم يصيبهم في الجاهلية سباء. ↑

8. المها: بقر الوحش، تشبّه بها المرأة؛ فتطلق عليها مجازاً، فنقل الواشي الكلام إلى الحقيقة اللفظية، ليصل إلى ما يريد. ↑

9. إنى الشيء: بلوغه منتهاه وإدراكه. ↑

10. الناصية: قصاص الشعر في مقدم الرأس. ↑

11. أي: اجتمعوا حولي. ↑

12. أي: ناحيتها. ↑

13. الجِناب: موضع من ديار بني فزارة بين المدينة وفَيْد. ↑

14. أي: نُصلح. ↑

15. الأقط: شيء يتخذ من اللبن المخيض، يطبخ ثم يترك حتى يمصل. ↑

16. العُكة: قربة صغيرة يوضع فيها السمن أو العسل. ↑

17. يكيد بنفسه: يجودُ بِها في حال النَّزع والموت، يكرثه: يشتدّ عليه ↑

18. أي: فزعت. ↑

19. خُنَاصرة: بليدة من أعمال حلب، تحاذي قنسرين نحو البادية. ↑

20. الشَّحط: البعد. ↑

21. يقال: بالحرى أن يكون كذا وكذا، أي: جدير وخليق. ↑

22. القَوْز من الرمل: الكثيف المشرق المستدير، تشبّه به أرداف النساء. ↑

23. فبئس قائماً: من البؤس؛ وهو الفقر والذل. ↑

24. حَجْر: مدينة اليمامة، وأم قراها، وبها كان ينزل الوالي. ↑

Table of Contents

Start